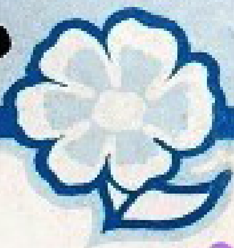
روايات عبير



nlo

سارا كريفن

آخر الأحلام

٥٥

روايات عبير

nlo

HARLEQUIN — "ABIR" — No. 55

آخر الأحلام

أحلام الانسان الصغيرة والكبيرة، الغريبة والمستحيلة، تنقذ الحياة من رتابتها. موت حلم، أو انتصار حلم، يجعل مرور النهارات المتتالية أمراً محتملاً أو العكس.

ليسا تكسرت أحلامها على أرض الواقع، ولكنها نهضت بعد كل موت وعلى يديها براعم حلم جديد تسقيه دموعها لينمو ويكبر. كان الحب عصاها وهي العمياء في دنيا تعج بالشرور، فقادها فجأة الى قصر الكونت راؤول دي جير كخطيبة مزعومة لشقيقه بول. أساء الكونت فهم مشاعرها وطعن في نواياها، فعذبها واحتقرها في الخفاء حتى فاق ألمها كل احتمال.

الى أين تهرب؟ وهل الهرب قليلاً من القصر حلّ لما يعتمل في النفس من أوجاع؟ الى أين يهرب المرء من نار مستعرة في داخله. حلم أخير يتهاوى مرتطماً بصخور الحقيقة المرة، ولكنه آخر الاحلام! فهل تمضي به ليسا صاغرة، أم تصارع من أجل الحياة؟

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية
THE GARDEN OF DREAMS

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ ـ الحَمام الدقيق

قالت جيني وهي تدخل في صلب الموضوع كعادتها:
«هل تعتزمين الزواج منه؟»
«لا أعرف.»
قالتها ليسا فيرفاكس وهي تأخذ البروش من علبته المخملية وعلى جبينها تقطيبة قلقة. تنهدت قليلاً وقالت:
«هناك شيء واحد أكيد، وهو أنني سأرد هذا البروش.»
قالت جيني معترضة:
«لست أدري ما الذي يدعوك الى ذلك. قدم لك بول أكواماً من الهدايا، ولم تفكري أبداً في رفض أي منها.»
«ولكن هذا شيء مختلف. أنه ثمين. أنا واثقة من ذلك. أنظري الى لون الذهب، والى طريقة صنع قفله. يبدو أثرياً.»
«ربما كان يغدق عليك بهدايا الزواج من مقتنيات العائلة التي توارثها، وفي ايّ حال أفضّل هذا التحوّل عن هدايا الزهور والعطور، وتلك الحلوى الفخمة التي لا نجرؤ على تناولها بسبب النظام الغذائي الذي تسير عليه. أوه، وتلك القدّاحة الرائعة، لقد نسيتها.»
«ولكنني لم أنسها، فهي أيضاً ثمينة للغاية. هذا كله كثير، وبسرعة

فائقة يا جيني، انا لم أتعرف عليه إلا من أسابيع فقط.»

«يقول البعض انها مدة كافية.»

«حسناً، ولكنني لا أقول ذلك. أريد أن أعرف الشخص معرفة تامة قبل أن أقضي معه بقية عمري. انني لا أحب التسرع في الأمور.»

قالت جيني وهي تتنهد بعمق:

«شاب فرنسي لم تر عيني مثل جاذبيته، صغير وثري، نعم يا ليسا انه لكذلك. لايمكن لأحد أن يكون في مثل تلك الملابس أو هذه السيارة مالم يكن متخماً بالنقود. وهو يرغب في الزواج منك، وبدلاً من أن تلقي بنفسك بين ذراعيه، تقولين...»

«سوف أفكر في الأمر.»

ابتسمت ليسا لرفيقة سكنها بود. لقد ظلتا رفيقتين منذ وصولها الى لندن، تشتركان في تلك الشقة الصغيرة في أعلى المبنى، المكونة من غرفة استقبال وغرفة نوم، تكفي بالكاد سريرها وخزانة الثياب، والمطبخ الصغير، ثم ذلك الحمام الدقيق.

«أعني أنني سأفكر في الأمر ملياً. انك على سبيل المثال كنت تعرفين روجر منذ وقت طويل حتى قبل أن تفكري بالارتباط به. وهكذا ترين أنه لا يمكن لي أن أكتفي بمجرد تلك المعرفة السطحية ثم أترك للأمور أن تسير وفق هواها، هل أعرف أنا شيئاً عنه، عن عائلته أو الظروف التي تحيط به؟»

«ألم يذكر لك أي شيء عن أي فرد من أفراد عائلته؟»

«تحدث فقط عن والدته مرات قليلة، كما ألقى ببعض الاشارات الغريبة عن أخ له، وهذا يعطيني انطباعاً بأن هذه المنطقة من حياته فيها شيء ما. بالطبع لم يقل هو ذلك بنفسه.»

«هكذا يقول لك حدسك الأنثوي، بصراحة ياعزيزتي انه فرصة العمر، وها هو على استعداد لأن يلقي بنفسه بين يديك. كما أنك لايمكن أن

تنكري أنكما تتوافقان بصورة جيدة.»

«أجل، بالطبع. أنه شخص تحسن صحبته تماماً، فهو جذاب ولطيف، ومسل، فيه كل مايتمناه أي انسان ولكن.»

«ياالهي ولكن ماذا؟»

«ولكنني لا أتصوره متزوجاً ومستقراً في حياة روتينية. خذي على سبيل المثال تلك الوظيفة التي يشغلها في السفارة. انه لا يأبه لها على الاطلاق.»

«حسناً، طالما أنه على مثل هذا الثراء الذي يبدو عليه، فلا حاجة به الى أن يشغل باله.»

«كلا، طالما كنت تشغلين عملاً فعليك أن تؤديه، لا أن تتلهي به. والآن أنظري الى البروش هذا. لو أنني أعلم من أين أتى به!»

قالت جيني في ذعر:

«بالتأكيد لاتعتقدين أنه سرقه؟»

ضحكت ليسا وقالت:

«بالطبع لا. ولكن كل ما في الأمر أن هذا البروش لايتفق وشخصية بول فهو شخص يتسم بالعصرية أما البروش فهو بالتأكيد ينتمي الى عصور مضت.»

«اعرضيه على ماغي. فما فائدة أن تكوني سكرتيرة لروائية تاريخية ما لم تستفيدي من خبرتها في بعض الأحيان؟»

«قد تكون على دراية بمثل هذه الأمور، ولكنني مازلت أعتقد أن من الأفضل أن أعيده الى بول عندما أراه الليلة.»

«هل تعتقدين أنه سيطلب منك الليلة رداً محدداً؟»

«أشك في ذلك، فنحن ذاهبان الى حفل رسمي من حفلات السفارة على ما أعتقد. في أي حال فان هذه فرصة لأن أرتدي ثوبي الشيفون الجديد.»

«كما أنها فرصة أيضاً لأن تضعي البروش.»

هزّت ليسا رأسها نفياً في إصرار وقالت:

«كلا، سأعيده اليه، وأبين له أنه لا يمكنني قبول مثل هذه الهدايا الثمينة، في الوقت الذي لم أتعرف عليه إلاّ منذ تلك الفترة القصيرة.»

«هكذا حتى وان كان يرغب في الزواج منك؟»

«من أجل هذا السبب بالذات. تعلمين ما يقال عن الزواج المتسرع. فكري أنت كم عاماً مضى عليك وأنت تعرفين روجر. كنت صديقته لمدة عام على الأقل قبل أن يعرض عليك الخطبة.»

ضحكت جيني وقالت:

«ولكن روجر باركه الله، ليس هو ذاك الشاب الفرنسي الأنيق الذي يرغب في أن يحملني ويطير.»

«لا أظن أنني أود أن يحملني ويطير. الواقع أنني لا أعلم ما الذي أرغب فيه، لم يحدث لي من قبل مثل هذا التردد.»

التقطت جيني البروش لتفحصه بدقة وقالت:

«أعتقد أن الأحجار الكريمة به ليست حقيقية.»

«لا يمكن أن تكون هذه الأحجار من الماس، أليس كذلك؟ انني أتساءل هل من العادات الغريبة للفرنسيين أن يقدموا مشابك للصدر بدلاً من خاتم الخطبة.»

«مازلت أعتقد أن هذه الأحجار ليست حقيقية، أعني أنه لا توجد الآن أحجار ماسية بهذا الحجم الكبير، كما أن طريقة قطعها مختلفة أيضاً. ولكن لاجدال في أنه عمل أثري.»

«لاأشك في ذلك، ولكن المشكلة حالياً هي كيف أعيده اليه بصورة مهذبة.»

«ان مشكلتك الرئيسية في اللحظة الحالية هي أن تستعدي لهذه الليلة.»

قامت ليسا على عجل، رفعت شعرها ثم عرضت وجهها لبخار

الماء المعطر، حاولت تجاهل ضيق الوقت، أغمضت عينيها وهي تقول لنفسها: لتدع مشاغل يومنا تتبخر في هدوء. ان مارغريت ديزموند التي تعمل عندها، واحدة من أكثر الشخصيات جاذبية، ولكن عندما تتسلط عليها فكرة كتاب جديد فانها تتطلب ممن يعمل معها تركيزاً كاملاً. وكان على ليسا أن تعترف أنه منذ أن عرض عليها بول الزواج قبل يومين لم تستطع أن تركز تفكيرها تماماً في عملها.

وبرغم ذلك، فان الكتاب الجديد الذي تعمل فيه ماغي كان هو سبب لقائها ببول. فهي مشغولة حالياً بالأبحاث التاريخية المتعلقة برواية حول الثورة الفرنسية، وقد أرسلت ليسا الى السفارة الفرنسية للحصول على قائمة بأسماء المراجع وكتب السيرة الذاتية التي ألفها مؤرخ فرنسي شهير كانت ماغي تراسله وكان موجوداً في لندن لعدة أيام قليلة.

وقامت ليسا بتسليم مذكرة من ماغي لبول الذي كان عليه أن يقودها عبر الممرات الكثيرة في السفارة الى الجناح الذي كان المؤرخ يقيم فيه. وللمصادفة الغريبة التي وجدت فيها ليسا نوعاً من الراحة، كان بول منتظراً لحظة خروجها. بل انه لم يكتف بمصاحبتها الى خارج السفارة وانما أصر على أن يصحبها في سيارته السبور الأنيقة للغاية حتى مكان عملها عند ماغي.

استقبلته ماغي بترحاب وطلبت منه تناول الغداء معهما وهي تمارس هوايتها في التوفيق بين من سيتزوجون من الشباب المؤهل.

قالت ليسا لنفسها: ان تلك واحدة من مساوىء الواجبات عند الأم الروحية. فقد كانت ماغي تجد متعة شخصية في معرفة الأمور التي تشغلها في غير وقت العمل، ولكن ليسا كانت تعلم أن تلك هي بالذات الحقيقة التي جعلت والديها مطمئنين الى عملها بعيداً عنها في ديفون مئات الأميال.

وكانت ماغي سريعة في اجتذاب أية لمحة رومانسية لقصة حب حتى في المواقف غير المناسبة على الاطلاق، وهو الأمر الذي يفسر الشعبية البالغة لكتبها، وكان من الواضح أن بول حظى باهتمامها كزوج محتمل لليسا.

قالت ليسا لنفسها: لم أجرؤ على إبلاغها أنه طلب مني الزواج، وإلاّ لسارعت الى إبلاغ أمي وأبي ولكان الاعداد للزواج، قد تم قبل أن أعلم أنا به.

مدام دي جو رددت هذا الاسم ببطء في محاولة لايجاد نوع من الارتباط به، ولكنه بدا لها غريباً عنها وغير حقيقي.

وحتى لو أنها تزوجت بول، فأين سيعيشان معاً؟ في فرنسا؟ كانت ليسا تتقن الفرنسية الى حدما خاصة بعد استيعابها لبعض ما يردده بول، ولكن مع ذلك مازالت فرنسيتها في مستوى المدرسة. وبول نفسه يتكلم الانكليزية بطلاقة كاملة، ولكن لا بدّ وأن له أقارب لايتقنون لغة أخرى. قالت لنفسها وهي تجفف، وجهها: لو أنني أحبه حقيقة، لما كانت هناك كل هذه الشكوك، ولو أنني أحبه حقيقة لكان ذلك الحب كافياً لاقامة كل الجسور اللازمة بيننا.

من الناحية الجسمانية، كانت تجد في بول مايبعث فيها نوعاً من النشاط والحركة، وهو أمر لم يستطع رجل من قبل فعله، ولكنها غير واثقة ان كان ذلك يرجع الى شعور حقيقي تجاهه، أم أنه مجرد ردّ فعل فتاة لاتجارب لها تقريباً إزاء شاب تعتقد أنه ذو تجارب عديدة. على أن الأمر أيضاً يبدو أنه نوع من المباراة بالنسبة الى بول، وتساءلت لو أنها استسلمت لرغبته، فهل كان سيظل راغباً في الزواج بها؟

لم تكن تلك بالفكرة المبهجة، لذلك أبعدتها عن تفكيرها تماماً وكان يجب عليها ألا تبخس بول حقه، لقد أصر دائماً على أن تراجعها الغريزي في مواجهة عواطفه قد أسعده حقاً.

لقد أوضح لها أن المجتمع المفتوح الذي يستسيغ الكثير من التصرفات، وان كان يثير استمتاعه، لا يمكن أن يقر له قاعدة الاباحة بالنسبة الى المرأة التي يرغب في أن تكون زوجته. ومع أن ليسا لم ترغب أبداً في أن تكون جزءا من هذا المجتمع المفتوح، إلا أنها شعرت بالضيق من موقفه هذا الذي يتميز به الرجال، وقد إحتجت في إحدى المرات على ذلك بقولها:

«ان تلك هي نظرة العصور الوسطى الى الأمور».

ورد عليها ضاحكا:

«ولكن هذا حقيقي ياعزيزتي، وكل الرجال يشعرون به في أعماق نفوسهم، حتى وان كانوا لا يجرؤون على التصريح به علانية. فالفتيات اللواتي يرغب الرجال في الزواج منهن يجب أن يكنّ لهم وحدهم. وأؤكد لك أن موقفي فيه كثير من العصرية والتنوير بالمقارنة، على سبيل المثال، بأخي.»

أحكمت الحزام حول ردائها المنزلي ودخلت الى غرفة النوم. كان لون بشرتها شاحباً بطبيعته ولكن يخلو من العيوب. وكانت معتادة على وضع طبقة خفيفة من المساحيق مع بعض التركيز على عينيها الخضراوين الناعستين اللتين كانتا أجمل ما في وجهها. مشطت شعرها الطويل الأصفر المائل الى الفضي حتى لمعت خيوطه قبل أن تعقصه في رشاقة خلف رأسها، وتركت خصلتين منه تتسدلان في حرية وكأنما تحددان إطار وجهها. ثم ارتدت رداءها الشيفون ذا اللون الذي يمتزج فيه الأزرق بالأخضر بالبنفسجي. كان هذا هو ثوبها المفضل وكانت جيني تقول انها تشبه فيه حورية البحر. أخيراً انتعلت حذاءها الفضي ذا الكعب العالي. كانت تأمل أن يعجب ذلك بول. فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يراها في هذا الثوب، وكانت تعتقد أن حفل الليلة هام ولذلك صممت على أن تبدو في أحسن حالاتها. تعودت الآن

على ومضات أنوار المصورين الذين يحضرون مثل هذه الحفلات، وكانت دائماً تجذب انتباههم رغم أنها لم تر إحدى صورها في أي مكان، وان كانت تعتقد أنها تنشر في المجلات الفرنسية.

بعد أن أتمت استعدادها، نثرت بعضاً من عطرها المفضل، ونظرت الى نفسها في المرآة الطويلة التي عثرت عليها هي وجيني في أحد محال الأثاث القديم.

ظهرت جيني عند الباب الخارجي وهي تمسك بعلبة البروش، وقالت بإعجاب:

«رائع. وهذا البروش سيكون هو اللمسة الأخيرة، خاصة مع الشيفون. جربيه على الأقل. ليس في ذلك ضرر.»

أخذت ليسا البروش ووضعته حول عنقها. ونظرت اليه في شغف وهو يعكس جميع الألوان في ثوبها. قالت جيني في رجاء:

«أوه ليسا، يجب أن تضعيه. إنه يبدو رائعاً.»

هزت ليسا رأسها نفياً، وما أن بدأت في خلعه إلا ودق جرس الباب.

«لا بدّ أنه بول.»

هرعت ليسا نحو الباب وفتحته، وهتفت مرحبة بالفرنسية:

«مساء الخير ياسيدي.»

«مساء الخير يا آنسة.»

لم يكن هذا هو الصوت الذي توقعت سماعه، ونظرت الى أعلى لأول مرة لتجد نفسها في مواجهة رجل غريب تماماً. كان طويل القامة وأسمر اللون ذا شعر أسود. لم تستطع تحديد التعبير الذي بدا على وجهه، ولكن ظهرت على فمه الصارم ابتسامة باهتة بدون حرارة كأن هناك شيء غامض ينم عن الرفض في النظرة الفاحصة التي نظر بها اليها. رفعت ليسا رأسها لتنظر اليه في تحدّ وقالت:

«معذرة ياسيدي. كنت أنتظر شخصاً آخر كما ترى.»

«هذا هو سبب وجودي هنا.»

أخرج مغلفاً من جيبه وسلمه لها. كان عليه اسمها. فتحته وهي تشعر بالقلق وكانت في داخله مذكرة من بول تقول:

ليسا، حبيبتي، سامحيني، ولكنني لن أتمكن من الذهاب الى الحفل الليلة. حدث شيء غير متوقع على الاطلاق أجبرني على تغيير خططي. سأراك غدا لأعوضك عن ذلك، أقسم على ذلك.

المحب بول.

«يؤسفني أن أكون حاملاً لأنباء سيئة.»

لم يكن في صوت الغريب شيء ينم عن الأسف وأردف:

«لم يتمكن بول من المجيء بنفسه ليشرح الموقف، ولأنه لا يوجد لديك هاتف، فقد أسعدني أن أنوب عنه.»

«شكراً لك ياسيدي.»

لم تنس ليسا مبادىء السلوك الطيب برغم ماتشعر به من خيبة أمل مريرة، وقالت:

«هل تتفضل بالدخول قليلاً؟ أنا ليسا فيرفاكس، وهذه رفيقتي في السكن جيني كالدويل.»

دخل الى غرفة الجلوس الصغيرة ووقف ينظر الى مقاعدها المريحة والأريكة الصغيرة الموجودة أمام مدفأة الغاز. لم يظهر عليه تعبير محدد ولكن ليسا أدركت أنه لم يعجب تماماً بما رأى.

«انك لم تخبرنا عن اسمك ياسيدي.»

التفت اليها ورمقها بتلك النظرة التي تفحصها من رأسها الى قدمها والتي بدأت تستاء منها.

«أنا راؤول دينيس في خدمتك يا آنسة. والآن بعد أن رأيتك يمكنني أن أقدر لماذا كان بول بائساً لعدم قضائه هذه الليلة معك.»

توقف لحظة ثم اردف:

«الذي عرض لك يا آنسة. أنا أيضاً عانيت من المصير نفسه هذه الليلة، فقد أصيب المرافق لي بمرض مفاجىء، وهناك حفل كوكتيل يجب أن أحضره ثم حفلاً للمسرح فيما بعد. وبما أن كلاً منا لم يعد له رفيق، فهل نستغل هذا الموقف في قضاء الليلة معاً؟»

حدقت فيه ليسا وقالت مندهشة:

«ولكنني لا أعرف، لم يذكر بول أمامي أبداً اسم راؤول دينيس هل أنتما صديقان حميمان؟»

هز كتفيه وقال:

«لنقل أننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل. وقد عهد الي في ثقة أن أجيء الى هنا لتسليم المذكرة. كما أنه سيكون مؤسفاً أن تضيعي كل هذا التألق وهذا الثوب في المنزل. ولا حاجة بك أن تخشي شيئاً. ان بول لن يغار مني.»

«لعلمك ياسيدي، ليس لبول الحق في أن يغار من أي انسان.»

ونظرت الى راؤول دينيس في شيء من الحيرة. انه على حق لقد كانت في كامل زينتها، وليس هناك مكان تذهب اليه، والبديل الذي يعرضه عليها يغريها. قالت أخيراً:

«حسناً ياسيدي. يسعدني أن أكون في صحبتك لو أنك سمحت لي أن أحضر معطفي.»

توجهت الى غرفة النوم وأغلقت الباب وراءها. كانت جيني جالسة على أحد الأسرة وقالت وهي تحملق فيها:

«يالك من محظوظة!»

«انني لا أدري. انه يبدو مؤدباً بدرجة كافية. وطالما أنه يعرف بول، فلا بد أنه شخص محترم. ومع ذلك فلا أستطيع فهم كنه هذه الدعوة.»

«لم لا؟ انه شخص مناسب تماماً.»

«أجل، أعتقد ذلك. ولكن طوال حديثه معي، برغم أنه مهذب، كنت أشعر أن هناك شيئاً ما. يوحي بأنه لا يميل إليّ حقيقة. هناك خطأ ما في الأمر كله.»

«أعتقد أن لك خيالاً خصباً، وأن ما يعرضه عليك حل مقبول. ان كنت لا تستريحين اليه فانك لن تكوني مجبرة على الحديث معه طوال الوقت فأنت ذاهبة الى المسرح. هل نسيت؟»

«أجل، أعتقد أنك على حق. يبدو أنني حمقاء.»

ارتدت ليسا معطفها وقالت متنهدة:

«لقد نسيت، الارث التاريخي. ماذا سأفعل به الليلة؟ أين أخفيه؟ ليس هناك مكان آمن أضعه فيه.»

«اذا كنت قلقة عليه، دعيه حيث هو. انه يبدو في مكانه الطبيعي، أعتقد أن الرجل المجهول يرى ذلك أيضاً. فلقد لاحظت أنه ألقى اليه نظرة فاحصة عندما أتى الى هنا.»

«يبدو لي انه من الخطأ أن أرتديه، طالما أنني كنت عازمة على إعادته الليلة.»

«حسناً، على الأقل ستشعرين بالراحة وأنت تعلمين تماماً مكانه. كما أن بول لن يعرف عن الأمر شيئاً.»

«أعتقد أنك على حق. ولأكن صريحة معك. انني معجبة بوضعه هكذا.»

قالت وهي تثبت أزرار معطفها:

«لست مستريحة الى هذه الليلة. فانه يبدو لي مثيراً للقشعريرة.»

«على خلاف السيد بول دي جو على سبيل المثال. على فكرة، ألا يذكرك ملك القراصنة ذاك بشخص ما؟»

«لا أعتقد ذلك. فيمن تفكرين؟»

«لا أدري. للوهلة الأولى، وأنت تفتحين له الباب، بدا شكله مألوفاً.»

«لاأعتقد أن الألفة هي صفته الرئيسية، في الواقع أنني أتوقع أن أتحول الى لوح من الثلج في نهاية السهرة معه.»

عند عودتها الى غرفة الجلوس، وجدت السيد دينيس واقفاً بجوار الخزانة الجانبية ينظر في إحدى المجلات الخفيفة. احدى هوايات صاحبة المنزل قراءة المجلات التي تظهر كيف يعيش النصف الآخر كما كانت تحب أن تصفها، وكانت دائماً ترسل هذه المجلات الى الفتاتين وكان يبدو عليها خيبة الأمل عندما لا يبدو عليهما الاهتمام بكل ما فيها من مظاهر الترف.

تلك المجلة بالذات، دفعتها من تحت الباب عندما كانت الفتاتان في عملهما بالخارج وأرفقت بها مذكرة كتبت عليها. انتظرا لتريا هذه، ولكن أياً منهما لم يعرها التفاتاً عندما عادتا الى المنزل لأن هدية بول التي تحتوي على البروش جاءت في الوقت نفسه واستحوذت على اهتمامهما.

عندما دخلت ليسا الغرفة، ألقى راؤول دينيس المجلة جانباً والتفت تجاهها. وأفزعتها تلك النظرة الغاضبة التي رأتها في عينيه، ولكن قبل أن تتمكن من استيعاب هذا الموقف أو تبدأ في التساؤل عن السبب، تلاشت هذه النظرة من عينيه وعاد الى وجهه ذلك القناع من الغموض والتحفظ.

ابتسمت ليسا في مرح بتكلف لم تكن في الواقع تشعر به. انها تود الآن لو أنها رفضت تلك الدعوة وأمضت ذلك المساء بجانب المدفأة في قراءة كتاب. كان من المستبعد تماماً أن يتحول هذا الشخص الى رفيق مرح بعد كل ما رأت منه حتى الآن.

«انني على استعداد تام ياسيدي.»

ثم تحولت الى جيني وقالت:

«الى اللقاء ياعزيزتي. أتمنى لك وقتاً رائعاً مع روجر، أراك غداً

مساء. لانني فهذا هو دوري في شراء الحاجيات.»

قاطعها السيد دينيس في صوت حاسم:

«الوقت يسرقنا ياآنسة. أقترح أن ترجئا هذه التفاصيل المنزلية الى مناسبة أخرى.»

حاولت ليسا الاحتفاظ بهدوئها. فهو صديق لبول. ولكنها كانت تشعر بالغضب يحرق وجنتيها وهي تسير تجاه الباب قائلة في نفسها: الحيوان المغرور، كيف يجرؤ على التحدث معي هكذا؟ ليتني تركته يذهب الى الحفل التعس بمفرده.

استمر الصمت بينهما الى أن هبطا الى الطريق حيث كانت تنتظرهما سيارة فارهة حمراء داكنة.

اختلست ليسا نظرة الى رفيقها داخل السيارة وقالت لنفسها: ان جيني محقة فهو وسيم. لو أنه فقط حاول أن يبتسم قليلاً. سألته في صوت حاولت أن يكون مرحاً:

«أعتقد ياسيدي أننا سنذهب الى حفل كوكتيل، هل لي أن أعرف أين؟»

«في دار فونتين.»

«فونتين للمنسوجات؟»

«تماماً ياآنسة. هل تعرفين هذه الشركة؟»

«بالطبع لقد سمعت عنها. ومن لم يسمع بها؟ وغالباً ما تنشر تصمياتها في مجلاتنا. انها رائعة، ولكنني أعتقد أن أسعارها تجعلها فوق مستوانا. ولا أظن ان شركة فونتين للمنسوجات وهيئة الفتيات العاملات يجتمعان معاً.»

«صحيح ان منتجاتنا تقتصر على دور الأزياء. ولو أننا طرحناها في أسواق الجملة لما كانت لها تلك القيمة الخاصة. ومع ذلك فلسنا نتجاهل مطالب سوق الجملة ولدينا خطط معينة لامداده.»

تحسس جزءاً من قماش ردائها الشيفون الذي كان يطل من تحت معطفها وقال:

«هذا التصميم، على سبيل المثال، ساحر.»

«انك تدهشني ياسيدي، فلم أكن أظن أنك لاحظته.»

«انت مخطئة ياآنسة. سوف تكتشفين انه لاتفوتني ملاحظة سوى القليل جداً.»

قال ذلك كأنه يحذرها من شيء. ولكن ما هو؟ انهما غريبان تماماً، ولو أن هناك أي عدل أو رحمة لما تقابلا أبداً بعد تلك الليلة. اذن ما الذي يدفعه الى ذلك الموقف الغريب؟

توقفت بهما السيارة أمام المبنى الأنيق. وقادها السيد دينيس عبر المدخل ممسكاً بذراعها بقوة. كانت ليسا واعية بقبضته طوال الوقت لسبب لم تكن هي نفسها تفهمه.

ذهبا الى الطابق الأرضي حيث كان الحفل في صالة واسعة، وعندما وصلا كان المكان مكتظاً والحفل في أوجه. وعند المدخل طلبت منها المضيفة معطفها في أدب. وأدركت ليسا تماماً من الذي ساعدها في خلع المعطف لهذا كان نبضها يزداد بسرعة، وشعرت بالغضب من نفسها لذلك.

سألها السيد دينيس:

«ماذا تشربين؟»

«كأساً من الشراب الحلو من فضلك.»

تظاهرت ليسا بالهدوء وهي في انتظار الساقي الذي أسرع تلبية لايماءته. قدم لها كأساً وأخذ هو كأساً آخر من الشراب. ثم أخرج من جيبه علبة سكائر ذهبية، وقدم لها سيكارة فتحت ليسا حقيبتها وأخرجت القداحة. أخذها من يدها وأشعلها بسهولة وقدمها لها.

«انها مهارة منك. لقد فشلت في استخدامها في المرة الأولى.»

تفحص دينيس القداحة وقال:

«انها أنيقة للغاية. أهنئك على ذوقك.»

«الفضل يرجع الى شخص آخر ياسيدي. انها هدية من صديق.»

«آه.»

قالها في نبرة مقتضبة، أشعلت غضبها ودفعت الدماء حارة الى وجهها من جديد.

كان الكثير من المدعوين يصلون طوال الوقت. وأدهش ليسا أنه عند دخول أي منهم كان المسؤول عن الحفل يعلن عند الباب عن اسم الضيف بصوت عال. قالت في نفسها أن أحداً لم يعلن عن قدومنا، ربما لأننا دخلنا من باب جانبي. أرجو ألا يكون من الأشخاص الذين يتطفلون على مثل هذه الأماكن أو شيئاً من هذا القبيل. ولكنه يتحدث عن فونتين وكأنه ينتمي اليها.

تحولت ببصرها بحثاً عن منفضة سكائر، وجاء رجل طويل القامة مسرعاً تجاهها:

«راؤول، صديقي العزيز! كم أنا سعيد لأنك تمكنت من الحضور، اننا لم نعد نرى بعضنا كثيراً هذه الأيام، وهذا شيء آسف له. لماذا لم تخطرنا بمجيئك حتى تعد لنا هيلين حفل عشاء؟»

«للأسف! يجب أن أعود الى باريس فوراً.»

لأول مرة أضاءت وجه السيد دينيس ابتسامة حقيقية جعلته يبدو في سن أصغر وجاذبية طاغية. تساءلت ليسا: ترى كم يبلغ من العمر؟ في أوائل الثلاثينيات بالتأكيد. انه يبدو نحيفاً بالمقارنة بطول قامته ولكنه كان يتحرك في رشاقة فائقة.

كان هناك شيء غريب فيه، كما قالت جيني تماماً . هناك ألقة في مظهره تبدو عابرة بحيث لا تستطيع أن تربط بينها وبين أحد تعرفه. ربما يشبه أحد نجوم السينما؛ ولكنها نادراً ما تذهب الى السينما.

«آنسة فيرفاكس، أقدم لك ماكس برينتيس المدير الاداري لفرع فونتين، لندن. ماكس، انني لست في زيارة طويلة. ولكن هناك نقطتين لها طبيعة شخصية أود أن أناقشها معك. سيكون بيننا فسحة من الوقت، عندما أعود في الخريف.»

«وهكذا فانني أعذرك.»

ابتسم برينتيس الى ليسا وقال:

«ما رأيك في آخر تصميم لنا؟»

«لم أره بعد. هل الحفل مقام لهذا السبب؟»

«ياصغيرتي. كم تجاهلناك. راؤول. عليك اللعنة. أتحتفظ بهذه المخلوقة الساحرة لنفسك فقط ولا يخطر لك حتى أن تحيطها علماً بسبب اقامة هذا الحفل؟»

قادها الى صالة العرض عبر الردهة وأشار قائلاً:

«اليك آخر تصميم لنا..»

«أوه! انه شيء خرافي. ليس هناك من كلمة أخرى يوصف بها، ولكنكم بالتأكيد لاتنتجون تصمياً واحداً في الموسم.»

«أوه، كلا، اننا نعرض المجموعة الكاملة على بعض المشترين بشكل خاص. ولكن هناك دائماً أحدث المنتجات المختارة التي تبين الاتجاه الذي سنسير عليه في أي تصميم آخر لنا.»

«أحب أن أرى تلك المجموعة الكاملة.»

«يمكننا بالتأكيد أن نرتب لك هذا الأمر. سوف أحصل لك على موافقة راؤول.»

أدركت ليسا أن راؤول جاء في هدوء ليقف خلفها، ولاحظت انه يراقبها في استمتاع وقال:

«يمكن لنا بالتأكيد أن نقوم بزيارة لغرف التصميم اذا رغبت في ذلك، ولكنني أمل يا ماكس ألا تقترح التصميم لها. أعتقد أنه لا يلائم

لون بشرتها.»

«بالتأكيد. انني أفكر لها في تصميم إحدى ليالي الصيف، كم يناسبها ذلك بألوانه الزرقاء العميقة وتنويعاته الفضية. أليس كذلك يا راؤول؟»

«شيء غير معقول!»

أدركت ليسا أن راؤول دينيس يتفحصها بامعان وأحست بحمرة الخجل تعلو وجنتيها.

نظرت ليسا الى راؤول دينيس في تساؤل بعد أن ابتعد برينتيس وقالت:

«هل اجراءات الأمن مشددة هنا؟»

«بالطبع. هناك حراس للأمن لمنع التصوير غير الرسمي. لقد وقعت دائماً حالات لسرقة تصمياتنا، ولذلك فنحن لانترك الآن شيئاً للظروف.»

نظرت ليسا الى القماش المعروض وقالت:

«انه رائع جداً، انه يشبه روح الربيع، ذهبي لامع في براءة.»

«ولكن مع لمسة وحشية تحت السطح، مثل المرأة، أليس كذلك ياجميلتي؟»

أحست ليسا بالارتباك قليلاً وتحسست البروش الذي أعطاها إحساساً بالثقة، ومنحها الجرأة لترد تلك النظرة الفاحصة الى ذلك الغريب المتعب، الذي يبدو أنه مصمم على تعذيبها. قالت وهي تحاول إخراج صوتها بشكل عادي.

«ان السيد برينتيس شخص جذاب. هل تعرف جميع الحاضرين هنا؟»

«كلا، وما الذي يدعوني لذلك؟»

«حسناً. ألم تأت الى هنا لمقابلة شخص معين؟»

«كلا. انه من قبيل الصدفة أن يقام هذا الحفل أثناء وجودي في لندن. فانا أعلم أن فرع لندن يسير بصورة طيبة ولذلك لايحتاج مني الى اهتمام كبير.»

لم تستطع ليسا أن تمنع نفسها من السخرية وهي تقول:

«لا بد أن ذلك يسعدهم كثيراً. ما الذي تفعله بالتحديد ليجعلك في مثل هذه الأهمية ياسيدي؟»

«انني لا أفعل الكثير. أنا المدير الاداري للبيت الفرنسي، ولكن جدي هو الذي كانت له الأهمية. فان فوتنين من تأسيسه، وذلك هو السبب في أن عائلتنا تحتفظ بميزة ادارته.»

توقفت ليسا عن الكلام لفترة طويلة ثم قالت في هدوء:

«يجب عليّ أن أعتذر ياسيدي.»

«ولماذا الاعتذار؟ لم يكن هناك سبيل لأن تعرفي.»

نظر الى ساعته وقال:

«أعتقد أننا قمنا بواجبنا هنا. لقد حان الوقت للذهاب الى المسرح.»

كانت ليسا في حاجة الى شراب، الى عدة كؤوس في الواقع لتهدىء من أعصابها حتى تحتمل المحنة القادمة.

«سنذهب الى المسرح في تاكسي.»

«ولكن لماذا لا تذهب في سيارتك؟»

«أفضل ألاّ أتعرض للمشاكل الانكليزية في إيقاف السيارات. لقد أمرت السائق أن ينتظرني عند شقتك آخر الليل. سوف نأخذ عشاء بعد انتهاء المسرح.»

كانت ليسا تعتزم أن تتعلل بصداع بعد المسرح لتتركه لشأنه بقية الليل، ولكن يبدو أنها ستحرم أيضاً من النوم مبكراً أيضاً.

«تشجعي ياجميلتي. الليلة مازالت في بدايتها.»

هل أحست ليسا بنبرة خبث في حديثه؟

٢ ـ الشمس تشرق لك

طوال رحلة التاكسي الى الوست إند لاحظت ليسا، لدهشتها، ان راؤول دينيس تغيّر كثيراً. فلم يعد يلقي بتلك الكلمات التي تحمل معاني خفية والتي عذبتها كثيراً. وعندما أشار الى المسرحية التي اختارها، قالت مبتهجة:

«هذا رائع! كنت أود مشاهدتها منذ دهور.»

حاولت إقناع بول في عدة مناسبات لمصاحبتها، ولكنه كان يعتذر دائماً بأن المسرح التقليدي يصيبه بالملل، وأنه يفضل مشاهدة برامج النوادي الليلية الخفيفة.

كانت المسرحية إنتاجاً رائعاً ومثيرة للتفكير والمناقشة. وخلال فترة الاستراحة وجدت ليسا نفسها في نقاش مع راؤول دينيس حول تأثير المواجهة بين الشخصيتين الرئيسيتين في المسرحية. أدركت ليسا أيضاً أنه خلال هذا النقاش لم تشعر إطلاقاً بالضيق بل نسيت تماماً أنها لاتميل اليه.

«لنأخذ كأساً أخرى. مازال أمامنا وقت. أعتقد أن المرأة التي تلعب دور الابنة لها مستقبل، أليس كذلك؟»

وافقته ليسا وهي ترشف كأس الشراب وقالت:

«هل تذهب الى المسرح كثيراً في باريس، ياسيدي؟»

«للأسف أذهب قليلاً جداً. انني أقضي معظم وقت الفراغ في الريف في بيتي هناك. فان والدتي مريضة الى حدما. وأنا أفضل أن أكون بجانبها أكثر وقت ممكن.»

ثم قال بصورة غير متوقعة:

«قولي لي، هل يستوجب اتباعكم للتقاليد الانكليزية المتحفظة أن تناديني براؤول؟»

كبحت ليسا جماح نفسها حتى لا تقول له ان هذا التعامل بشكل رسمي كان من صنعه هو منذ بداية السهرة، واكتفت بالرد:

«انا لست بهذا التزمت والتقليدية. سوف أناديك راؤول.»

«رائع. وأنا، بماذا أناديك؟»

«ليسا، اختصاراً لمليسا في الواقع.»

خلال الفصل الثاني من المسرحية، شعرت ليسا انه يراقبها طوال الوقت. كانت هذه المراقبة الدقيقة والنظرات المتفحصة والتصرفات الغريبة منذ طوال السهرة سبباً في توتر أعصابها.

بعد انتهاء المسرحية سألها راؤول دينيس:

«هل تفضلين مطعماً معيناً أم أنك على استعداد لترك الاختيار لي؟»

«انني على استعداد تام. أودّ أن أنبهك. لقد استمتعت تماماً حتى الآن، ولذلك لا أتوقع منك إلاّ الأفضل دائماً.»

«وهو كذلك. أعدك أن تجدي بقية السهرة أكثر تسلية.»

عاد اليها من جديد ذلك الشعور الغامض بعدم الارتياح لكلامه. كان المطعم الذي اختاره من أكثر المطاعم هدوءاً، وبذخاً. وخلال تناول العشاء حاول راؤول مرة التقرب منها ورفع الكلفة بينهما، الأمر الذي أصابها بارتباك شديد. وأحست أنه يفعل ذلك عن عمد، ولكن لماذا؟ وتمنت من كل قلبها أن تنتهي تلك السهرة.

كانت الوجبة شهية والخدمة سريعة وممتازة. أسندت ليسا ظهرها الى المقعد وهي تشعر بالدفء والراحة لتقديم القهوة والشراب في نهاية الوجبة. أغمضت عينيها لحظة، وعندما فتحتهما، وجدته يراقبها. قال بهدوء:

«أعتقد ان الوقت قد حان للانصراف.»

قالت ليسا حالمة:

«هذا هو أفضل مكان يمكن أن تنتهي فيه سهرة.»

«أو أن تبدأ!»

تعثرت ليسا وهيا في طريقها خارج المطعم، وجلست متهاوية تماماً داخل سيارة الأجرة. أغمضت عينيها من جديد، وعندما فتحتها لم تستطع رؤية ماحولها في وضوح. قالت لنفسها: ياإلهي، لقد أفرطت في الشراب. ان هذا فظيع!

سألها وهي تحاول جمع شتات نفسها لتجلس مستقيمة:

«هل تشعرين بشيء؟»

«كلا. انني على مايرام.»

كانت تكذب. استرجعت أحداث الليلة، وأدركت أنها أخذت عدة كؤوس من الشراب في الأماكن المختلفة التي إرتادتها، ولم تكن معتادة شرب مثل هذه الكمية. القهوة السوداء والفراش في أسرع وقت ممكن هما العلاج الوحيد لما هي فيه. عندما وصلت بهما سيارة الأجرة أمام منزلها، دفع راؤول الحساب للسائق وألقى نظرة على الطريق.

«يبدو ان سيارتي لم تصل بعد. هل هناك تليفون قريب؟»

«هناك صندوق تليفون عند منحنى الطريق.»

انتظرت ليسا منه أن يلقي اليها بالتحية ويمضي في طريقه الى التليفون، ولكن لم يبد عليه أنه يعتزم الانصراف. وهكذا وجدت نفسها مضطرة للقول:

«هل تريد فنجاناً من القهوة؟»

«شكراً.»

أخذ من يدها المهتزة مفتاح الباب الخارجي، وفتح الباب بنفسه قائلاً:

«تفضلي.»

حمدت ليسا الله أن تجد نفسها أخيراً منفردة في سلام وهدوء في مطبخها الصغير. فقد تركها راؤول تصنع القهوة وذهب ليجري المكالمة التليفونية. بدأت تشعر بالاتزان وهي تحمل القهوة الى غرفة الجلوس لتضعها على الطاولة بجانب المدفأة.

«هل يضايقك أن أشعل النار.»

كان راؤول واقفاً بجوار الطاولة ممسكاً بمجلة السيدة هندرسون.

«كلا. انها فكرة طيبة. دائماً يكون الجو بارداً في الهزيع الأخير من الليل. على الرغم من أننا مازلنا رسمياً في أوائل الصيف.»

«هل سويت الأمر بالنسبة الى سيارتك؟»

«أجل. حدث سوء فهم، ستكون هنا حالاً.»

«هذا شيء جيد.»

«أشعر بالاحباط. هل تودين أن تنتهي الليلة هكذا سريعاً؟»

«لم أعن ذلك. هل تريد مزيداً من القهوة؟»

«كلا. شكراً. رغم أنها كانت قهوة لذيذة.»

«هذا رأي الجميع.»

ابتسمت وهي تفكر في بول، الذي عبر لها مراراً عن تقديره لقهوتها بشيء من المبالغة. وكأن هذه الابتسامة أشعلت ناراً في راؤول قال:

«ياإلهي!»

كان صوته خشناً، ولم تعرف ما اذا كان ذلك غضباً أم نوعاً آخر من العاطفة. وقبل أن تسنح لها الفرصة للاعتراض اقترب منها وجذبها اليه

وأحاطها بذراعيه وأسكتها... وكانت هي ترتجف بلا حراك بين يديه.

«ياإلهي، ليسا، انك لاتدرين ما الذي تفعلينه بي.»

انحنى عليها من جديد واحست بانفاسه على كتفيها. كانت تلهث، وعروقها تنبض في إصرار... وشرعت تبادله تلك العاطفة المتأججة وهو يتمتم بكلمات الحب بلغته الفرنسية. وبدأ هو يزيح عن جسمها الرداء الشيفون في عنف أفضى الى تمزقه وانزلاقه الى الأرض.

في تلك اللحظة سمعت صوت شيء معدني يرتطم بالأرض ويتدحرج بعيداً انه البروش الذي أهداه إياها بول.

فجأة أدركت ليسا في وهن ماذا يحدث لها.

«كلا!»

انتزعت نفسها من بين ذراعيه، وألقت نظرة سريعة على نفسها في المرآة التي تعلو المدفأة. شعرها منسدل على كتفيها العاريتين وثوبها ممزق وهابط الى وسطها تقريباً.

«أوه، يالك من متوحش، شيطان، كيف تجرؤ.»

«أجرؤ!»

حدّق فيها بعينين تشتعلان، وبدا خطيراً وكأنه نمر متوحش وأدركت ليسا مذعورة أنها هنا منعزلة تماماً ومعظم الجيران غير موجودين تلك الليلة. وهو يعلم أن جيني أيضاً لن تعود الليلة. لا بد أنه خطط كل ذلك عن عمد.

«كنت أعتقد ياجميلتي أننا توصلنا الى نوع من التفاهم. من المؤكد أنك لاتحاولين التظاهر بأنني أول رجل يبيح لنفسه خدمتك»

«خدمتي؟ انك لاتعني، من المستحيل أن تتصور أنني، أن أسمح لك...»

«منذ لحظة مضت، كان لدي كل الأسباب أن أظن ذلك.»

كانت نظراته تتفحص جسمها في إعجاب وقح وأحست أنها تقف

مكشوفة أمامه.

«فيما يتعلق بي، ياجميلتي، فان قبولك دعوتي الليلة، تعني أنك وضعت نفسك تحت تصرفي. وانني آسف كونك لم تفي بالجزء الخاص بك من الصفقة.»

«أخرج. أخرج حالاً قبل أن أستدعي الشرطة!»

«كيف تفكرين في هذا؟ لو أنني مكانك مالجأت الى استدعاء الشرطة. الشرطة في انكلترا ليست حمقاء، وهم يعلمون تماماً ماذا يفعلون بامرأة شابة تسمح لرجل أن يصطحبها للعشاء والشراب طوال الليل، ثم تصرخ في النهاية بأنها تتعرض للاهانة في شقتها. هذا بالاضافة الى أنه لم يصبك سوء سوى في ثوبك. وربما في كرامتك.»

التقط معطفه وسار نحو الباب وقال في انحناءة خفيفة:

«ليلة سعيدة.»

اندفعت ليسا بعد خروجه وأوصدت الباب خلفه، وأسندت رأسها عليه لتسمع وقع خطواته هابطاً الدرج. وأخذت أنفاسها تتهدج في نشيج عنيف يلف جسمها كله.

بعد فترة تمكنت من جمع شتات نفسها وسارت ببطء الى غرفة النوم وألقت بنفسها فوق السرير، وهي تحس بخدر في جسدها وألم حاد في حنجرتها والدموع تنهمر من عينيها.

ألقت اللوم بمرارة على نفسها لأنها وافقت على الخروج معه. ولكن بول يعرفه، ومن الواضح أنه يثق به.

أما أكثر ما كان يثير الخجل في كل ماحدث أنها سمحت له. لم تقاوم، بل لم تكن تريد المقاومة، الى أن فرض بول نفسه على ذاكرتها. بالصدفة تقريباً.

بول! آه لو أنه علم! هل سيخبره هذا الرجل دينيس؟ يجب ألا يعلم. فسيشعر باهانة بالغة، وله الحق في ذلك، أن تتصرف بهذا الشكل مع

رجل ليس بغريب فقط بل رجل كانت تصرفاته معها منذ البداية توحي بنوع غريب من الاحتقار لها.

وأسوأ ما في الأمر أنها مازالت تحس بلمسات شفتيه ويديه. وكأنه درس لايمكن أن تنساه.

قامت من سريرها وأكملت خلع ردائها وطوحت به بعيداً عن الأرض، كان من أحب الأثواب اليها، والآن إنها لاتحتمل مجرد النظر اليه.

لفت جسمها برداء المنزل وانتقلت الى غرفة الجلوس لتشعر بالدفء هناك. وتمنت لو أن جيني لم تقض تلك الليلة مع أسرة روجر. فهي في حاجة ماسة لسماع صوت ودود الى جانبها لئلا تجلس هكذا وحيدة مع أفكارها. الحل لتلك الحالة يكمن في كوب دافء من الحليب وحبتين اسبيرين، وبعض الضوضاء. التقطت الراديو الترانزستور وأخذت في تحريك المؤشر الى أن صادفت موسيقى هادئة وشاعرية، ثم حملته معها الى المطبخ لتستمع اليه وهي تعد الحليب.

عادت الى غرفة الجلوس، وضعت كوب الحليب على الطاولة التي توسط الغرفة. كان فنجان القهوة الذي استخدمه راؤول مازال هناك. ثم توجهت الى الخزانة الجانبية لتحضر الاسبيرين.

وقعت عيناها على مذكرة بخط جيني تركتها فوق الخزانة الجانبية كتب فيها: حضرت ماغي فورذهابك. كانت تبدو في غاية البهجة، والغموض أيضاً. يبدو أن شيئاً رائعاً حدث لها، ولكنها ستقوله لك بنفسها غداً.

قطبت ليسا جبينها لحظة. انها ليلة الأحداث الغامضة، وهي لم تعد تحتمل الغموض بعد الآن. وضعت المذكرة فوق الوسادة، وبدأت تقلب في مجلة السيدة هندرسون. قد تكون هذه المجلة آخر شيء يستحق القراءة، ولكنها تفيد في إبعاد أحداث هذه الليلة عن تفكيرها

ومساعدتها على النوم. وما أن استلقت على الأريكة لقراءتها، حتى رأت أن أحد أطراف صفحاتها قد ثني عن عمد. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إن شخصاً ما، ربما كانت السيدة هندرسون، وضع خطاً أزرق تحت إحدى الصور المنشورة بها. صاحت ليسا: ماذا بحق السماء؟ وهي تنظر غير مصدقة. الصورة المنشورة قد التقطت في إحدى الحفلات التي أقامتها السفارة الفرنسية منذ عدة أسابيع مضت، عندما بدأت في الخروج مع بول. وكانت لها وهما يقفان في أسفل درج غير مدركين على الاطلاق بأن هناك صور تلتقط لها. وقرأت جملة كتبت تحت الصورة تشير الى بول بالدبلوماسي اللاهي وتصف ليسا بأنها آخر فتاة شوهدت بصحبته. التعليق تحت الصورة يوحي بأنها واحدة من فتيات المدينة الخليعات. اذن هذا ما كانت تعنيه السيدة هندرسون بمذكرتها! انه أمر فظيع. وتمنت لو أن أحداً آخر لم يشاهد هذه المجلة.

عادت أفكار ليسا للحظة التي شاهدت فيها تلك النظرة الغاضبة في عيني الرجل، والمجلة ملقاة أرضاً في إحتقار. وأدركت ليسا السبب الذي أثار غضبه، ولكنها لم تستطع أن تفهم لماذا تأثر بهذه الصورة الى هذا الحد.

في أية حال لن تر دينيس ما عاشت. واذا ما ذكر بول اسمه أمامها، فما عليها إلا أن تتحول الى موضوع آخر للحديث. هكذا ظل بها التفكير الى أن غلبها النعاس في نهاية الأمر.

عندما استيقظت على صوت جرس المنبه. لم يكن هناك شك في أنها تشم رائحة قهوة، وما أن أزاحت الأغطية عنها لتستقصي الأمر، دخلت جيني الغرفة وهي تبتسم، وبين يديها صينية عليها قدحين من القهوة أدركت ليسا أن السرير الآخر في الغرفة غير مرتب. قالت بدهشة:

«لكن لم تقضي الليلة عند عائلة روجر؟»

«كلا. فوالدته لم تكن صحتها على مايرام. يبدو أنها مصابة بنوع من الفيروس. أعادني روجر الى هنا في وقت متأخر، وكنت أنت غائبة عن العالم تماماً. وبالمناسبة، انك مدينة لي بالشكر على ما قمت به من عمليات تنظيف.»

«تنظيف؟»

حدقت فيها ليسا في حيرة. ثم تذكرت، في شيء من الخجل، ما حدث ليلة أمس من آثار تركتها في غرفة الجلوس. قالت جيني بشيء من اللوم:

«تركت المدفأة مشتعلة. ماذا حدث؟ هل كان تأثير القرصان عليك كبيراً الى هذا الحد؟»

حاولت ليسا تجنب نظرة جيني الفاحصة بدون جدوى. قالت جيني:

«هيا أخبريني بكل شيء.»

«أوه جيني. لقد كان ذلك فظيعاً!»

وفي كلمات محددة ومختصرة حكت ليسا الخطوط العريضة لأحداث الليلة السابقة، التي أفضت الى محاولته إغوائها. استمعت اليها جيني فاغرة فاها وقالت:

«ولكنه صديق لبول! تلك المذكرة التي جلبها كانت بخط بول. أي نوع من الرجال هو، حتى يتصرف على هذا النحو مع فتاة صديقه؟»

«لكنه في الواقع لم يقل انهما صديقان، بل من المعارف القدامى. ربما أنه لا يميل الى بول وكان يحاول القيام بأي شيء لايذائه.»

«هل ستقصين الأمر على بول؟»

«أوه كلا! ماعساي أن أقول؟ هذا... هذا الانسان كان على حق، كان بامكانه أن يحصل عليّ، بل كان على وشك أن يفعل لولا البروش ذاك.»

يا إلهي! لقد تذكرت لتوي! سقط وربما يكون قد فقد مني، أو أنه قد أخذه معه نكاية بيَ. أوه جيني ماذا عساي أن أفعل؟»

«لاتقلقي على ذلك الارث التاريخي. عثرت عليه فوق السجادة ووضعته في أمان داخل علبته.»

توقفت ليسا عن الكلام فترة ثم قالت:

«جيني. كيف تشعرين وأنت مع روجر؟»

«أتعنين عندما يقبلني؟»

«أجل، الواقع انني خجلة من سؤالي لك هذا، ولكنني لا أستطيع أن أحكم من مجرد شعوري بالوجود مع بول. كنت أظن أن كل شيء بيننا على مايرام تماماً، ولكن الليلة الماضية.... لاأدري ان كان هناك أي انسان يمكنه الشعور بمثل ما شعرت به.»

«ان الرجال من نوع راؤول دينيس يجب إما أن يوضعوا في سجن مغلق من أجل إقرار الأمن، أو أن يتركوا لتصرف كل النساء. لأستطيع وصف شعوري مع روجر. كل مايمكنني قوله هو أنك ستعرفين عندما تلتقين بالرجل المناسب، اذ لن تكون هناك أية شكوك. ولكن لاتنخدعي بمثل هذا الروميو القادم من أوروبا. والذي ربما تعرّف على نساء كثيرات. ليس هذا هو الحب. إنه الهوى. لاتخلطي بينهما حتى تكوني واثقة من الحب.»

«انني لم أعد متأكدة من أي شيء على الاطلاق. شكراً لك على إنقاذ البروش. أشعر الآن أكثر من أي وقت مضى بضرورة إعادته. ترى ماذا سأقول له؟»

«قولي له ماكنت تعتزمين من قبل قوله. قولي ان تلك الهدية أثمن من أن تقدم في مثل هذه المرحلة من علاقتكما. كما أنه من الضروري أن تكون معرفتك به أوثق حتى قبل أن تفكري بالزواج منه. هل تحبين أن أكون معك في ذلك الوقت.»

«كلا. أعتقد أنني يمكن أن أقوم بمفردي بهذا الدور. والآن يجب عليّ إرتداء ملابسي وإلاّ فانني سأتأخر عن موعدي.»

أخذت على عجل فنجاناً آخر من القهوة، وقطعة من الخبز المقدد، ثم ارتدت ثوبها الصوفي ذا اللون العاجي، ومعطفاً خفيفاً. وخرجت لتستقل مترو الانفاق.

عندما وصلت ليسا الى منزل ماغي، كانت تشعر بشيء من الانتعاش. ان أمها الروحية أرملة غنية ولكنها تكسب أيضاً أموالاً طائلة من بيع كتبها الرائجة. كانت ماغي طويلة القامة وقد وخط الشيب شعرها، ومع ذلك كانت جذابة للغاية رغم أنها في الخمسينيات من عمرها.

وكان من عادة ماغي عندما تؤلف كتاباً أن تعمل فيه معظم الليل وتتركه لليسا لتعيد كتابته في الصباح على الآلة الكاتبة. عندما دخلت ليسا هذا الصباح، بادرتها ماغي قائلة:

«شكراً لله أنك حضرت أخيراً ياعزيزتي.»

«انني لم أتأخر عن موعدي أليس كذلك؟»

«كلا. لم تتأخري بالطبع، ألم تعطك جيني رسالتي؟»

«أجل، ولكن ما كل هذا الغموض؟»

«أولاً، وقبل كل شيء، هل جواز سفرك جاهز؟»

«أجل. ماذا بحق السماء؟»

«لاتقولي ماذا؟ قولي أين. ماقولك في أن تمضي الشهر القادم أو نحو ذلك في قصر فرنسي كان قد تعرض للنهب أيام الثورة، ولم ينقذه من الدمار تماماً سوى بعض الخدم المخلصين؟ ليس هذا فقط، وانما هناك أيضاً كثير من الأوراق المتعلقة بتلك الفترة حفظت بعناية، بما في ذلك مذكرات الكونت صاحب القصر عن تلك الفترة قبل أن يقودوه الى المقصلة. لقد دعينا للاستفادة من كل هذه الأوراق كما تشاء.»

«أوه، ماغي! انه حلم. كيف حدث ذلك؟»

«آه، لقد فقد الكونت القديم رأسه تحت المقصلة، ولكن ابنه نجا بحياته وفرّ الى انكلترا ومعه معظم مجوهرات العائلة وتزوج سيدة انكليزية ثرية، وعندما عادت الأمور الى طبيعتها في فرنسا عاد هو أيضاً واستعاد القصر، وابنه، الذي كان له أيضاً ابن...»

«أعتقد أن شجرة العائلة هذه ستقودنا الى شيء ما.»

«صحيح ياعزيزتي. ستقودنا الى السيد بول دي جو الذي يجب علينا تقديم الشكر له على هذه الدعوة التي هبطت علينا من السماء.»

«بول يمتلك قصراً؟»

«ليس هو في الواقع بل أخوه الأكبر الذي أصبح حالياً الكونت دي جو. ولكنه بالطبع منزل بول أيضاً. والدته تعيش هناك ويبدو انه كتب اليها عندما سمع باعتزامي وضع كتاب عن فترة (حكم الرعب)، وأعرب لها عن اعتقاده بأن مغامرات جده الكبير يمكن أن تكون أساساً لكتاب رائع، وقد وافقت أمه. وتلقيت منها رسالة رقيقة موقعة أيضاً من الكونت نفسه. والآن. ماذا بك ياعزيزتي؟ كنت أظن أنك ستبتهجين.»

«انني مبتهجة من أجلك. ولكن... هل من الضروري أن أذهب أنا أيضاً؟»

«بالطبع. فأنت سكرتيرتي، ولايمكنني الاستغناء عنك. بالاضافة الى انني أعتقد أنك وبول... لقد بدا كل شيء مناسباً تماماً.»

«تلك هي المشكلة. انني لم أقرر بعد شيئاً بالنسبة الى بول. ويبدو لي أن تلك الدعوة تهدف أساساً الى ممارسة مزيد من الضغوط حتى أوافق.»

«من الناحية الأخرى، فان رؤيتك له في أرضه، ووسط أفراد عائلته، قد يساعدك على اتخاذ قرار. فالانسان يكون على طبيعته في منزله. وقد

تحبينه أكثر وهو بعيد عن أضواء السلك الدبلوماسي.»

«ربما تكونين على حق. في أية حال فانه لن يكون هناك طوال الوقت. فلديه عمله هنا.»

«لاتعولي على ذلك كثيراً. فقد أشار اليّ مؤخراً بأنه سيحصل على اجازة. أعتقد أنه ينوي أن يكون دليلنا وصديقنا خلال هذه الزيارة.»

«أوه، ماغي. لم لا تكون الحياة بسيطة وتظهر لنا فقط اللونين الأبيض والأسود.»

«لأنها لو كانت كذلك لما كان الاستمتاع بها.»

رن جرس التليفون. رفعت ليسا السماعة، وهتف بها صوت بالفرنسية:

«حبيبتي!»

«أوه بول. كم أنا سعيدة أن أسمع صوتك.»

«أخشى ألاّ يسعدك سماعه الآن.. فانني مضطر أن أؤجل موعدنا الليلة. هل أستطيع أن ألقاك اليوم على الغداء في المطعم الايطالي كالمعتاد؟»

«لامانع.»

قالتها ليسا وهي تحاول إخفاء خيبة الأمل في صوتها.

«الى اللقاء اذن.»

قالت ليسا لنفسها: ان هذا لمضحك. لو كنت أنا أتساءل طوال الوقت ما اذا كنت أرغب في الزواج به أم لا، فانه هو أيضاً بالتأكيد يتساءل عن الشيء نفسه بالنسبة إلي.

عندما وصلت الى المطعم كان بول هناك منتظراً. قالت ليسا بعد أن تناولا الغداء:

«الطعام هنا له مذاق شهي.»

«هذا حقيقي. انه المكان الوحيد الذي سأفتقده عندما أرحل.»

«هل ستغادر لندن؟»

«خلال أسبوع. ولكنني أعددت لك شيء عدته. كان عليّ أن أعود الى بلادي، ولكن لابدّ أن تأتي فتاتي ليسا معي. فأنا أرغب بأن تشاهدي بلدي، ضيعتي وأن تقابلي عائلتي. وكنت آمل أن يتم ذلك وأنت خطيبتي بالفعل. ولكنني راضٍ بما تقولين وسوف أنتظر في صبر. ان والدتي لا تعلم شيئاً سوى أن السيدة ديزموند، التي تعجب كثيراً بكتبها، ستقوم بزيارتنا ومعها سكرتيرتها. انها سعيدة، السيدة ديزموند سعيدة وأنا سعيد. لماذا لا تكونين أنت أيضاً سعيدة.»

«سأحاول أن أكون سعيدة نوعاً، برغم شعوري بالحيرة. لم أكن أعلم أنك تعيش في قصر. هل به أبراج وزنزانات؟»

«القليل. فان الكثير من البناء الأصلي تهدم أثناء الثورة. وعندما عاد هنري دي جو الى فرنسا قرر ألاّ يتمسك بالطراز الذي كان سائداً في العهد القديم، وهكذا أعاد بناء الأجزاء التي سيعيش فيها على طراز عصري حديث في ذلك الوقت.»

«كان رجلاً دبلوماسياً. هل أنت مثله؟ وهل وهو سبب التحاقك بالسلك الدبلوماسي؟»

«كلا. كان عليّ أن أفعل شيئاً، والقيام بمصالح العائلة عمل لم يكن يستهويني. في كل حال، تغير الآن كل ذلك. فقد تقرر أن أعود الى سانت دينيس لأتعلّم كيف أدير الضيعة.»

قالت ليسا لنفسها: ربما يجعل منه ذلك رجلا أكثر صلابة وأكثر إحساساً بالمسؤولية. انه لطيف، ولكنه يتصرف بصورة أصغر من سنه. كانت ليسا تود أن تسأله عن عائلته، ولكنها فضلت أن ترجىء ذلك حتى تتعرّف عليهم بنفسها. وعلى ذكر العائلة، تذكرت البروش، وأسرعت باخراج العلبة البنفسجية من حقيبة يدها:

«أرجوك يابول، لاتغضب مني. ولكنني لا أستطيع أن أقبل هذا

منك. انه هدية رائعة، ولكنه أثمن من أن يقدم لي في مثل هذه المرحلة من علاقتنا. لو حدث وتوصلنا الى اتفاق، فسيكون من دواعي افتخاري أن أرتديه. أما والأمور على ما هي عليه الآن فانني أفضل أن تحتفظ أنت به.»

«ليسا، فتاتي الجميلة. انك الوحيدة التي يمكن أن تتصرف على هذا النحو. كثير من النساء كن سيقبلن هذا البروش على ما أعتقد.»

«لست مثل الكثير من النساء. ولكن قل لي هل أنت معتاد تقديم مثل هذه الهدايا الثمينة لأية فتاة تقابلها؟»

«كلا، بالطبع. تلك هدية خاصة لك أنت بالذات. هذا البروش من الجواهر التي استطاع الكونت هنري أن ينقذها، وهو يقدم دائماً كهدية خطبة للابن الثاني.»

«كان حرياً بك أن تخبرني عن القيمة المعنوية لهذا البروش. لو كان لي أدنى علم لما أخذته منك على الاطلاق.»

«تماماً. وهذا هو السبب في أنني لم أخبرك. انني آسف ياحبيبتي، فقد كتبت الى والدتي، بمجرد أن عقدت العزم أن تصبحي زوجتي، لترسل لي البروش. ووصلني بعد أن أخبرتني أنك تحتاجين الى مزيد من الوقت لتقرري. وكان من المستحيل عليّ أن أعيده مرة أخرى بدون بعض الايضاح.»

«في أية حال عندما أذهب الى القصر أرجو اعتباري سكرتيرة ماغي لا أكثر. وأنا على ثقة من أنك لن تزيد الأمور تعقيداً أمامي.»

«تعقيداً! عندما تأتين الى القصر، يافتاتي ليسا، سوف تشرق لك الشمس، وسوف تنشر ملايين الورود عطرها من أجلك. أقول لك مسبقاً، انك سترغبين بألاّ تتركيه أبداً.»

٣ ـ عودة الطائر

بعد ثلاثة أسابيع مليئة بالحركة والمهام، وقفت ليسا وماغي وقد أمسكت كل منهما بيد الأخرى وهما تضحكان في عصبية عندما بدأت طائرتهما التحليق فوق مطار لو بورجيه حيث كان بول ينتظرهما.

بعد انتهاء إجراءات فحص جوازات السفر والجمارك، وقف بول لتحيتهما ومساعدتهما في حمل متاعهما الى سيارة الضيعة العاجية اللون. قالت ليسا وهي تتحسس في إعجاب هيكل السيارة اللامع:

«سيارة جديدة؟»

«أجل. ولكنني كنت أفضل سيارتي الأخرى، إلا أن هذه السيارة أكثر فائدة لعملي.»

حملقت فيه ليسا بشيء من القلق. اذ اعتبرت ذلك مظهراً من مظاهر التدليل في شخصية بول التي لاتقرّها. وكان معتاداً على أن تكون كل تصرفاته أمام ماغي تخلو من أية هفوة. ولكن هذا أفضل لتتعرف على طبيعته بشكل أكثر توازناً.

توقفا في الطريق لتناول الغداء. أصبح بول أكثر ابتهاجاً. ولاحظت ليسا نظرات الاعجاب من بعض الرجال الذين كانوا

يجاورونهم في المطعم.

ابتسمت لهما ماغي وقالت:

«ليباركَكما الله. أعتقد أن أخاك يستحق منا التحية يابول. كان كرماً منه أن يتيح لنا الاقامة في منزله.»

أحست ليسا بالقلق عندما لاحظت رد فعل بول لذكر أخيه. وتساءلت: ترى هل كان ذلك لأن أخاه أجبره على التخلي عن سيارته المفضلة واستبدلها بتلك السيارة الأكثر نفعاً للضيعة؟ ان ماغي تحتاج لجو هادىء تعمل فيه، وسيكون شيئاً مثيراً للاحراج لو أن إقامتها بالقصر تخللتها المشاكل العائلية.

سارت بهما السيارة تجاه سانت دينيس في طريق تحيط به الأشجار. قال بول:

«سنكون هناك قبل موعد تناول الشاي. أوه. أجل. اننا نحافظ على العادات الانكليزية، على الرغم من أن جدتي لم تعد تقيم معنا. انها تفضل الجو في أنتيب.

سألته ليسا:

«هل جدتك انكليزية؟»

«فعلاً. انها إحدى تقاليد عائلة دي جو أن يتخذ أفرادها زوجات انكليزيات. انه تقليد آمل أن يستمر.»

قالت ليسا لنفسها: هكذا، بعد كل وعوده لي بأن يعاملني كمجرد سكرتيرة لماغي لا أكثر ولا أقل. قال بول:

«ان سانت دينيس تبعد حوالي كيلو مترين. سوف نهبط الآن الى الوادي، ان من المتعذر رؤية القصر بسبب الغابات الكثيفة التي تحيط به. ولكننا سنتوقف عند الجسر لنتمكن من رؤيته.»

سارت بهما السيارة ببطء في دروب قرية سانت دينيس الجميلة،

وكان بول يلوح بيده لكل العابرين الذين كانوا يقابلونه بابتساماتهم وتحياتهم. توقفت السيارة بالقرب من الجسر الحجري. وأشار لها بول تجاه القصر حيث وقعت عيناها على أبراجه التي تطل من فوق جذوع الأشجار الكثيفة. ملأها شعور غريب بالاثارة. كان ذلك كله يشبه حكايات الأطفال الخيالية التي عرفتها. التفتت الى بول وقالت:

«ياله من شيء لايمت الى عالمنا بصلة! انني أتوق الى رؤيته.»

«من الأفضل أن نذهب الآن. فان والدتي يصيبها القلق لو تأخرت ولو دقيقة عن الموعد الذي تعتقد أنني يجب أن أصل فيه.»

لاحظت ليسا فيما كان بول يتحدث عن والدته. تلك النبرة العاطفية والابتسامة الحانية وهما تدلان على حب وتقدير فائقين نحو أمه. كانت تشعر بقليل من التوتر إزاء مقابلة تلك الكونتيسة الفرنسية، حتى ولو كانت هذه المقابلة على أساس العمل الرسمي، وليس مضافاً اليها قلقها بسبب علاقتها الدقيقة مع بول. والآن تبدو الكونتيسة دي جو فجأة أنها شخص حي، حقيقي، ذو عواطف وأحاسيس وليست مجرد دم أزرق وتقاليد.

دخلت بهم السيارة الى فناء القصر وتوقفت أمام الباب الرئيسي للمبنى الفخم. لاحظت ليسا أن شخصاً ما، فتاة ترتدي ملابس بيضاء كانت تطل من شرفة القصر. كان يبدو أنها تراقب وصولهم عن عمد، ولكنها لم تقم بأية محاولة للتلويح لهم أو جذب اهتمامهم. قال بول:

«تقدمي ياعزيزتي، ان السيدة باريت تنتظر للترحيب بنا.»

«هل هي مدبرة المنزل؟»

«انها أكثر من ذلك أيضاً. لقد أتت الى القصر عندما كان والدي طفلاً.

وفي بعض الأوقات عندما كنا صغيرين أنا وأخي وكان أبي يعاقبنا على شيء سيء فعلناه، كانت تقدم لنا الحلوى وتحكي لنا عن بعض أفعاله السيئة وهو صغير مثلنا.»

قدمت السيدة باريت لهم التحية في حرارة وقالت ان السيدة الكونتيسة تنتظرهم في الصالون الصغير.

دخلوا ردهة واسعة يتوسطها درج هائل يقود الى ممرات طويلة في الطابق العلوي. حاولت ليسا أن تستوعب قدر امكانها ما تقع عليه عيناها بدون أن تحملق في الأشياء بشكل يثير الانتباه. هتفت ماغي وهي تدقق بنظرها فيما حولها في سعادة:

«لو أنني لم أبعث الحياة في هذه الأشياء فلن أستحق أن أكون كاتبة بعد الآن. هل هذه صورة زيتية للعائلة؟»

«بعض منها فقط. اذ أن معظم الصور الثمينة وإرث العائلة محفوظ في معرض خاص في الطابق الأرضي. سوف أجعلك تشاهدينها غداً.»

قالت السيدة باريت:

«ولكن السيدة ديزموند سوف تشاهد المعرض الليلة. فقد أصدر سيدي الكونت أوامره عندما وصل صباح اليوم بتشغيل جهاز التدفئة في المعرض قبل العشاء.»

قال بول بصوت غاضب:

«هل أخي موجود هنا؟»

«بالتأكيد وهو أيضاً قد أحضر معه ضيفاً.»

فتحت السيدة باريت أحد الأبواب وأدخلتهم الى غرفة ذات أثاث جذاب، وامرأة تجلس على مقعد ذي مسند عال الى جانب مدفأة مشتعلة. وقفت المرأة فور دخولهم. تقدم بول وقبل يدي المرأة ثم وجنتيها. كانت امرأة طويلة ورشيقة وجميلة. قام بول بمهمة

التعارف، ولكن ليسا لاحظت أن التجهم عاد الى وجهه من جديد. إلا أنها شعرت بالارتياح عندما قدمها لأمه على أنها مجرد سكرتيرة.

«طالما أن التعارف تم بين الجميع، فالأفضل لي أن أقوم أنا بتقديم نفسي.»

كان ذلك صوت فتاة تقف عند النافذة. كانت صغيرة الحجم وسمراء، ترتدي زياً بسيطاً أبيض بدون أكمام، وتضع في أعلى عنقها مشبكاً ذهبياً للصدر. كانت تلك هي الفتاة التي راقبت وصولها من الشرفة. قامت ليسا بمقارنة سريعة بين تلك الفتاة الجميلة الأنيقة وبين ملابسها المغبرة من أثر الرحلة ووجهها الذي يحتاج الى تنظيف.

قال بول في دهشة كاملة:

«دومينيك! ماذا تفعلين هنا؟»

«لا يبدو عليك السرور برآي ياعزيزي. لقد وجه اليّ أخوك الدعوة، وبالطبع لم أستطع الرفض وأنا أعلم أن في ضيافته أيضاً السيدة ديزموند القصصية المشهورة.»

لم يكن في حديثها شيء يوحي بالعداء، ولكن ليسا أحست على الفور أن دومينيك لم تسمع أبداً عن ماغي، وأنه لم يكن يضيرها في شيء لو أنها لم تقابلها على الاطلاق.

قام بول بعملية التعارف للقادمة الجديدة على أنها دومينيك فومون، وتساءلت ليسا ان كانت هذه الفتاة التي قدمت باعتبارها ضيفة الكونت سوف تصبح كونتيسة المستقبل. فالفتاة تبدو مسيطرة على الموقف، ولم تضيع وقتاً في أن تمد يدها الى بول قائلة بعد أن وجدت السيدة دي جو وماغي قد بدأتا في حديث جانبي:

«هيا ياعزيزي، لنذهب الى الشرفة لتخبرني بكل أنباء لندن، فان رسائلك لم تكن بها تفاصيل كافية.»

قال بول وهي تجذب يديه في شيء من الفظاظة:

«أعتقد أن الشاي قادم. انني آسف لتأجيل حديثنا. وفي أية حال لست أعتقد يا دومينيك أن نشاطاتي في لندن تهمك كثيراً.»

«انك مخطيء، ياعزيزي، صدقني انني أجد متعة في كل ماتفعله.»

لم ينقذ بول من الاجابة عليها سوى قدوم الشاي مع اثنين من الخدم وتحت إشراف السيدة باريت التي قالت لليسا:

«لاتقلقي ياصغيرتي، انه شاي على الطريقة الانكليزية تماماً. لقد أعددته كما علمتني السيدة الجدة.»

جلست ليسا على الأريكة وفي يدها قدح الشاي الساخن وفي مواجهتها السيدة دي جو التي مالت عليها قائلة في طيبة خالصة:

«اني أعلم يا آنستي انك لست مجرد سكرتيرة للسيدة، بل أنك أيضاً ابنتها الروحية.»

«هو كذلك ياسيدتي.»

كانت تشعر بالتوتر وهي تدرك أن دومينيك، التي كانت تجلس بالقرب منها، تقوم بفحصها من قمة رأسها الى أخمص قدميها. قالت السيدة دي جو:

«يالها من راحة لوالديك.»

وقالت موجهة حديثها الى ماغي:

«ان ترك هؤلاء الفتيات الصغيرات لموطنهن للاقامة في المدينة يثير القلق حقيقة، فان ابنتي آن ماري واحدة من أولئك. انها تعمل في مجلة أزياء في باريس، وتقيم لحسن الحظ مع ابنة عمي التي أثق فيها كثيراً في شقة واحدة، ومع ذلك فانني أشعر بالقلق عليها كثيراً.»

التقت عينا ليسا بعيني دومينيك الفاحصتين، وشعرت بالضيق، وارتبكت قليلاً. قال بول وكان واقفاً بجوار النافذة، وهو

يتقدم ليجلس الى جانبها:

«بعد انتهاء الشاي ستذهب في جولة لتشاهدي الحدائق.»

قالت امه:

«أوه، بول، المسكينة! انها لم تر حتى الآن غرفة نومها. أو حتى تأخذ قسطاً من الراحة بعد عناء الرحلة. مازال أمامك أسابيع تقوم خلالها لتعرض على الآنسة كل هذه الأشياء. فلا ترهقها في أول يوم لها معنا.»

ابتسمت ليسا شاكرة. ولكنها لاحظت أنه عاد الى العبوس من جديد، وبدأ يتبخر بعض ما تحس به من سعادة أو إثارة. انها لم تر بول من قبل متقلباً على هذا النحو. من الواضح أنه يشعر بالضيق لاكتشافه أن أخاه قد وصل قبله. ولكن الكونت دي جو له كل الحق في الحضور الى منزله كيفما شاء.

وبدأت تتساءل: ترى كيف يبدو، ولكنها لم تسأل بول. ودومينيك أين موقعها من هذه الصورة؟ أدركت ليسا أنها مخطئة عندما ظنت أنها زوجة المستقبل للكونت. فان تصرفاتها مع بول تؤكد غير ذلك. كما لم تظهر في حديث السيدة دي جو أية إشارة الى أن دومينيك ستكون سيدة هذا القصر.

شعرت ليسا بالتعاسة لأنها لم تضع الأمور مع بول في نصابها قبل أن تغادر انكلترا. لم تكن تعرف ما اذا كان شعورها تجاه دومينيك هو الغيرة أم لا. ولكن الأمر يفوق طاقة البشر لو أنها لاتشعر بالضيق إزاء تصرفات الفتاة الواثقة تجاه بول. فالمؤكد أن الفتاة لم تكن تظهر هذا النوع من التملك إزاءه، لو لم يكن هناك تشجيع من جانبه.

انتهت عملية تناول الشاي، ودقت السيدة دي جو الجرس لتنادي على السيدة باريت حتى تدل ليسا وماغي الى غرفتيهما.

شعرت ليسا براحة جسدية عندما أغلق الباب بينها وبين دومينيك، تبعت السيدة باريت عبر الردهة وصعوداً للدرج. ووصلت الى ممر آخر ووقفت أمام أحد الأبواب في منتصفه فقالت السيدة باريت:

«ها هي ذي غرفتك سيدة ديزموند. والفتاة التي ستقوم على خدمتك اسمها ماتيلد. وقد قامت بعملية افراغ الحقائب. أما غرفة الآنسة فيرفاكس فهي الملاصقة لغرفتك ويفصل الحمام بينهما. آمل أن يكون هناك كل ماتحتاجان اليه، ولكن أرجو أن تدقا لي الجرس لو كنتما في حاجة لأي شيء.»

لم تستطع ليسا مقاومة صرخة إعجاب بدرت منها وهي ترى غرفتها، انها غرفة غاية في الأناقة. عندما أصبحت بمفردها، سارت نحو النافذة، ونظرت الى أسفل لتطل على حديقة صغيرة. وقفت بدون حراك تستمتع بدفء الشمس، ثم سارعت بتغيير ملابسها وتوجهت نحو الحمام الأنيق. أحست بالانتعاش تماماً بعد الحمام المعطر، وهكذا تخلت عن فكرة أخذ قسط من الراحة قبل العشاء وقررت أن تقوم بدلاً من ذلك بالبحث عن تلك الحديقة الصغيرة التي رأتها من نافذة غرفتها. وودت لو أنها لم تصادف بول في طريقها، بعد أن ادعت التعب من قبل.

كانت تظن أنها ستتذكر طريقها الى أسفل الدرج، ولكنها أدركت عندما وصلت الى الطابق الأرضي أنها سارت في طريق خطأ وأنها أصبحت الآن في جزء من القصر يبعد تماماً عن جناح النوم. كانت تسمع أصواتاً على البعد، ورائحة الطعام تصل اليها. لا بدّ أنها ضلت طريقها وأصبحت الآن في المنطقة التي يقع فيها المطبخ. سارت في ممر ضيق رصف بالحجارة لتجد نفسها وسط فناء أقيمت به غرفة خشبية

بداخلها خيول. فنسيت تماماً كل شيء عن الحديقة الصغيرة. لأنها كانت معتادة ركوب الخيل وهي طفلة، ومازالت تمارس هذه الرياضة بين الحين والآخر. بدأت تتجول حول الاسطبل وتقرأ اللافتات التي وضعت بأسماء الخيول أمام كل غرفة.

توقفت أمام أحد الخيول وكان اسمه ميسترال وربتت على رقبته في رفق وقالت:

«ليس معي شيء أقدمه لك ياصغيري، في المرة القادمة سوف أحضر شيئاً. قطعة من السكر أو الجزر.»

أحدثت الخيول في الغرف المجاورة بعض الضوضاء لاحساسها بوجود شخص غريب، وهكذا أخفت هذه الضوضاء صوت وقع أقدام آتية على الممر المغطى بالحصى. ولكنها مع ذلك لم تخف صوتاً يهتف برفق شيطان. كان صوتاً لم تكن ليسا تتوقع أو ترغب أبداً في سماعه طوال حياتها.

استدارت بشدة الى الخلف لاهثة لتجد نفسها وجهاً لوجه مع راؤول دينيس، وهو يقف على بعد خطوات قليلة منها، يعلو وجهه نوع من الصرامة تصل الى حد الغضب.

٤ ـ الى ما لا نهاية

بادر راؤول بكسر الصمت الذي بدا ممتداً الى ما لا نهاية بينهما:

«هكذا، ياآنسة، كانت لديك الجرأة الحقيقية بالحضور الى هذا المنزل؟»

قالت ليسا بعد أن استردت رباطة جأشها بانتهاء الصدمة الأولى لرؤيته، وتحولت الى غضب متصاعد:

«انها جرأة منك أنت ياسيدي. انني هنا بدعوة من الكونت دي جو نفسه.»

«حقاً؟ وهل أتيحت لك الفرصة لمقابلة مضيفك؟»

كانت هناك نبرة ساخرة في كلمته الأخيرة، وأدركت ليسا في غضب أنه لم يقصدها. بذلت جهداً للسيطرة على نفسها وقالت:

«لم أقابله بعد. في الواقع، لقد علمت أن وجوده هنا ليس متوقعاً.»

«هو ذلك بالنسبة إليك على وجه الخصوص.؟»

«كلا، وبصراحة ياسيدي، لقد بدأت أشعر بالندم على رؤيتي لهذا المنزل وكل سكانه!»

«اذن يمكن علاج هذا الموقف، سوف أعد لك على الفور سيارة لاعادتك الى باريس. ولا شك انك قادرة على العودة من هناك الى لندن بدون مزيد من المساعدة.»

«كيف تجرؤ على هذا القول؟ ليس لك أدنى حق في التصرف على هذا النحو.»

«ان لي كل الحق. فما دمت قد وجّهت اليك الدعوة لزيارة هذا البيت، كما تزعمين، فانني بالتأكيد لي الحق في سحب هذه الدعوة.»

«أنت وجّهت اليّ الدعوة؟ هل تحاول أن تقول انك، انك...»

سقط قلبها في يدها، وتوقفت عن الكلام، وهي لا تريد أن تصدق تلك الحقيقة المخيفة التي تضمنتها كلماته.

«تماماً، يا آنسة، يبدو أنك أدركت في النهاية. انني مضيفك راؤول دي سانت دينيس، كونت دي جو.»

شعرت ليسا بأنها مريضة. كم هي عمياء، وغبية ألا تعرف هذه الحقيقة. ذلك الشبه بشخص ما الذي لاحظته هي و جيني ! لماذا لم تدرك أن ذلك الغريب كان يشبه بول؟

قالت وهي تقاوم مشاعرها التي توشك أن تغرقها في موجة من الدموع والمهانة:

«لقد فهمت الآن. هل لي أن أسأل عن السبب في إخفاء شخصيتك في لندن؟»

«انني أعتقد أن الاجابة على ذلك واضحة.»

«ليست واضحة لي.»

«حقاً؟ اذن أوضحها لك. علمت أن أخي الأحمق الصغير مفتون بامرأة شابة لا يعرف عنها الكثير. وتبع ذلك على الفور ظهور صور في الصحف وأحاديث بالقيل والقال، لم تشبع فضولي تماماً. واعتقدت انك، فتاة سهلة، وتأكد لي يا آنسة أنك بالفعل فتاة تنتمين الى المجتمع المفتوح في لندن، وعلى أقل تقدير، فانك على استعداد لمصاحبة أي رجل لديه المال الكافي للانفاق على رغباتك . انتظري من فضلك.»

رفع يده ليوقف محاولة ليسا مقاطعته بحدة:

كنت في ذلك الوقت على استعداد أن أدع علاقتكما تأخذ مجراها الطبيعي. لقد كنا جميعاً شباناً وأتينا بأشياء حمقاء. ولكن بدا لي أنك تطمعين في شيء أكثر من المعتاد، لا أقل من الزواج! وهذا ما لم أكن لأسمح به. فانني أعتقد أنه قد آن الأوان لأن يتخلّ بول عن لهوه في السلك الدبلوماسي أيضاً، وأن يشرع في القيام بعمل جاد لأول مرة في حياته هنا في الضيعة.»

كان قلب ليسا يدق بعنف بين ضلوعها، بل سينفطر من قسوة الصورة التي تحس بها داخلها، وأخيراً قالت في صعوبة:

«لقد فهمت. ولكن ألم يكن يكفيك أن تضع الترتيبات لابعاد بول عن تأثيرك الشرير؟ هل كان من الضروري أن تخدعني على تلك الصورة البغيضة، وأن تهينني؟»

«يجب أن أعترف لك أنها كانت نوعاً من الفضول. والواقع أنني لم أضع خطة مسبقة لتلك الليلة، كما أن بول لم يكن يعتزم على الاطلاق أن أقوم أنا بتسليم مذكرته لك. لقد حصلت عليها حتى أتمكن من إشباع رغبتي في الحكم عليك بنفسي. ولكن ما حدث أملته على الفور رؤيتي لك تضعين البروش.»

«البروش؟»

«أجل يا آنسة. تلك القطعة من المجوهرات التي أهداها لعائلتنا لويس الرابع، والذي جرت التقاليد على إهدائها لعروس الابن الثاني عند خطبتها. وقد سمحت لنفسك بارتدائه لقضاء ليلة مع رجل غريب تماماً.»

كان يتحدث في رفق، ولكن لم يكن هناك ثمة شك في نبرة الغضب في صوته. ولكن ليسا أعطته كل العذر هذه المرة في هذا الغضب. قالت بصوت متهدج:

«انني آسفة. لم تكن لدي أية فكرة عما يعنيه هذا البروش، أوحتى ان

كان ثميناً. ولكنني أعتقد أنك لن تصدقني عندما أقول لك انني أعدته في اليوم التالي على الفور، وأبلغت بول أنه لا يحق له أن يعطيه إياي بدون أن يعطيني فكرة عن مغزاه.»

«لم يكن لبرل الحق منذ البداية في أن يسحبه من مجوهرات العائ بدون اذن مني.»

«ربما كان الأمر كذلك. ولكن ذلك شي، بينك وبين أخيك، ولست أ على ذلك.»

«لو كان لديك ادراك سليم ولم تغادري لندن، وتقبلت فكرة انفصال عن بول، لما كانت هناك حاجة بنا لاثارة هذه المسألة من جديد. والآ لتعد مرة أخرى الى تلك الليلة. لقد كان السبيل الوحيد أمامي لـ ارتباطك ببول هو اقناعه بأي نوع من النساء أنت. فلم أكن لأسم له أن يدمر حياته.»

ولأول مرة تهدج صوته قليلاً وهو يقول:

«مثلما حدث لحياة البعض.»

نظرت اليه ليسا في حيرة. لقد تبدل شعور الغضب تجاهها الى نوع آخر من المشاعر. وهي المرة الأولى التي تشعر فيها بأن المرارة التي يتحدث بها لم تكن موجهة اليها. استأنف حديثه:

«ان بول مستاء مني في الوقت الراهن لأنني انتزعته من حياة اللهو التي كان يعيشها. ولو أنني أريته البروش وأبلغته بأنه دليل على عد إخلاصك له، وخيانتك له مع أخيه، لكان ذلك نهاية لمشاعره تجاهك على ما أعتقد.»

«يالك من شيطان!»

«من الأفضل ألاّ نوجه الى بعضنا البعض ألفاظاً جارحة. اسمحي لي أن أصطحبك الى القصر حتى يتسنى لك حزم حقائبك.»

قبل أن ترفع صوتها في محاولة للاحتجاج، هتف بها صوت السيدة

ي جو الموسيقي:

بنيه يا أبنائي، أرى أنكما قد تقابلتما. راؤول، لماذا لم تنضم الينا في ول الشاي لتقابل ضيوفنا.»

كنت مشغولاً. هل وصلت السيدة ديزموند في سلام؟»

بالطبع. انها سيدة جذابة للغاية. وأنت ياصغيرتي هل تكتبين أيضاً القصص؟»

قالت ليسا وهي تحاول أن يخرج صوتها طبيعياً:

«كنت أقوم بكتابة قصص الأطفال لأصدقائي، عندما كنت صغيرة. ولكنني لم أجرؤ على نشر أي منها. لقد اكتفيت بالعمل كمساعدة اتي.»

كانت هناك لحظة صمت قصيرة، ثم اندفعت ليسا في الحديث مرة أخرى في محاولة ألاّ تثير قلق السيدة دي جو بذلك المشهد الذي دار منذ قليل بينها وبين راؤول. فقد تذكرت أن بول أبلغها أن صحة والدته ليست على مايرام:

«آمل ياسيدتي ألا يضايقك تجولي. فلم أكن أقصد أن أجد الاسطبلات. بل كنت في الواقع أبحث عن تلك الحديقة الصغيرة التي تطل عليها نافذة غرفة نومي.»

«لكم أنت الانكليز ولعكم بالحدائق! ان هذه الحديقة من إنشاء ـة راؤول. وتقوم أن ماري برعايتها بين حين وآخر.»

توقفت ثم نظرت الى ليسا في قلق:

«هل أنت متأكدة ياصغيرتي ان الرحلة لم تكن متعبة؟ انها تبدو شاحبة. أليس كذلك يا راؤول؟»

«قليلاً.»

الغريب أن ليسا وجدت أنه من الصعب عليها أن تتحمل منه هذه اللامبالاة، مثلما تحملت غضبه واحتقاره. كانت تريد أن تهرب، أن

تعود الى غرفتها لتكون وحيدة مع دموعها التي توشك أن تنهمر.

نظرت اليها السيدة دي جو في اشفاق وقالت:

«لا بدّ أن ذلك تأثير الرحلة الطويلة والجو الحار. راؤول، ياعزيزي رافق الآنسة فيرفاكس الى المنزل.»

سارعت ليسا بالقول:

«أوه، كلا. أعني، أعني شكراً جزيلاً. انني على مايرام حقيقة. كل ما هنالك انني في حاجة الى راحة قصيرة.»

وضعت في عناء ابتسامة على شفتيها المرتعشتين، واستدارت عائدة وهي تركض من الطريق الذي أتت منه، وكأن جميع شياطين جهنم تلاحقها.

عندما هدأت عاصفة الدموع التي تركت لها العنان في غرفتها، أحست كعادتها بالصفاء. نعم كان هناك غضب، ولكن ليس ثورة. وأخذت تمعن التفكير في هدوء.

لو أنها فعلت مثلما يريد راؤول، وحزمت حقائبها وعادت الى لندن، فان الأمر يحتاج على الأقل تفسيراً بالنسبة لماغي. وبول أيضاً يجب أن يعرف جزءاً من الحقيقة، على الأقل. كما أدركت أنه لن تكون هناك فرصة لحجب الحقيقة عن السيدة دي جو، علماً بأن رد فعل بول سيكون حاداً.

لو أنها واجهت الحقيقة منذ البداية، لتجنبت معظم هذا العناء، ولكنها استسلمت لاعجاب بول، ولم تعترف لنفسها بأنها لا تحبه بالدرجة التي تجعلها تتزوجه.

ولكن ما الذي جعلها تكتشف هذه الحقيقة بمثل هذا الوضوح فجأة؟ كانت منذ أسبوع واحد فقط غير قادرة على تحديد مشاعرها تجاه بول، في وقت كانت تظن فيه جيني أنهما يمثلان زوجاً مثالياً. ولكن يجب عليها ألاّ تظلم نفسها. فانها لم تعط بول إحساساً بالموافقة، بل

منته يشعر بذلك القلق الذي يساورها لرغبتها في أن تفعل الشيء الصواب، وألاّ ترتكب خطأً يدمر حياتها. كانت ليسا تؤمن بالزواج، الزواج لمدى الحياة، وليس مجرد الزواج لسنوات قليلة.

كلا لايمكنها أن تسافر هكذا ببساطة، ولكن من الناحية الأخرى كيف تستطيع البقاء؟ راؤول دي جو أساء الحكم عليها، لقد أعطته هي سبباً لذلك. عندما تذكر رد فعلها إزاء محاولته المتعمدة معها تبعث في نفسها القشعريرة. وسيكون من العسير الآن اقناعه بانها ليست ذلك النوع من النساء الباحثات عن الذهب كما يعتقد. ولكن ما الذي يدعوها أن تكون حريصة على اقناعه بعد ذلك؟

ومهما كان ظنه فيها، فليس من حقه أن يعاملها على هذا النحو. انه غرور الرجل فيه! كان يظن أنها سوف تستسلم له بدون مقاومة. ولكن خدعته الدنيئة وعدم التعريف بنفسه على حقيقتها كان السبب في كل ما حدث.

مهما يكن من أمر فانها لن تطرد هكذا الى لندن في لحظة. وفي كل حال، فهو لن يرضى أن تعرف والدته تلك الأفعال التي يقوم بها في الخفاء.

قالت لنفسها: سوف أتحدث مع بول في أسرع وقت ممكن وأبلغه برفق أن كل شيء بيننا قد انتهى.

ومع ذلك قررت أن تحذر بول من إبلاغ أخيه أي شيء. فليذهب الى الجحيم الى أن تنتهي ماغي من عملها، ثم تبلغه هي في النهاية أن شرف عائلته الغالي سيظل محفوظاً.

بعد أن أزالت ليسا كل آثار الدموع عن عينيها، حاولت بعناية فائقة أن تبدو على أحسن صورة على العشاء تلك الليلة. وقررت أن ترتدي الثوب المفضل لديها. الثوب الصوفي الأحمر الغامق المنسدل الى الأرض. عقصت شعرها الى الخلف، وخففت من حدة مظهر وجهها

بوضع قرط فضي في أذنيها.

بعد أن اطمأنت على مظهرها، توجهت الى غرفة ماغي، وطرقت الباب، وردت ماغي في ابتهاج:

«ادخلي، لقد تفوقت على نفسك الليلة ياصغيرتي. هل ستدخلين في منافسة مع الآنسة فومون الجميلة؟»

«ياإلهي، لقد نسيت كل شيء عنها!»

«وأنا أؤكد لك أنك لم تفارقي أفكارها منذ أن تركنا لها الغرفة لتنفث فيها دخان سكائرها الذي يسمم الجو. والآن، انني مستعدة هيابنا الى عرين الأسود. ولكن ما الذي يدعوني الى قول ذلك، فان السيدة دي جو ليست سوى ملاك، وانني لتواقة لمقابلة هذا الكونت الغامض. أيا كان اسمه. ألم يذكر بول اسمه أمامك؟»

«راؤول. أنا، هو، لقد تقابلنا في اسطبل الخيول، بمحض الصدفة.»

«ان شيئاً يقول لي. انه كان لقاء مشهوداً. لاتخبريني بشيء الآن حتى لا تفسدي شهيتي للعشاء.»

عندما دخلا الى غرفة الاستقبال الصغيرة، لم يكن هناك أحد سوى طفلة صغيرة ذات شعر أسود. قامت من فورها لتحيتها:

«مساء الخير ياسيدتي، مساء الخير ياآنستي.»

كانت تتصرف بصورة أكبر مما يناسب فتاة صغيرة لا تتجاوز السابعة أو الثامنة من عمرها. والغريب أن هذا التصرف كان يليق بها تماماً. جلست ماغي تتحدث مع الطفلة في حب وعلمت أنها تدعى فرانسواز تساءلت ليسا: ترى ما هو وضع الطفلة في هذه العائلة؟ ان السيدة دي جو لم تذكر سوى ابنة واحدة لها. كما أن عمرها لايتفق بأن تكون لها طفلة في هذه السن. بالاضافة الى أنها على ثقة من ان بول قال لها أن والده توفي منذ عشر سنوات على الأقل.

في تلك اللحظة فتح باب الصالون ودخلت دومينيك، في ثوب

أنيق. أظهرت فرانسواز إعجابها به على الفور وقالت في خجل:

«ان ثوبك جميل يادومينيك.»

«لن يصبح كذلك لوقت طويل، طالما أفسدته لمسات أصابعك.»

احمر وجه الفتاة، وسادت فترة من الصمت في أعقاب ذلك، قطعتها دومينيك بالسير عبر الغرفة في استعراض واضح لرشاقتها. ولاحظت ليسا أن فرانسواز ظلت محدقة في أرضية الغرفة وهي تعض شفتيها. لم ينه ذلك الموقف البائس سوى دخول بول والسيدة دي جو ضاحكة، وهي تمد يديها للطفلة:

«تعالي ياصغيرتي.»

أسرعت اليها الطفلة في شوق وقبلتها. ويبدو أن السيدة دي جو اعتقدت أن دومينيك قامت بمهمة تقديم الطفلة لها، لأنها لم تفعل ذلك. ووجهت سؤالا للطفلة عن مربيتها. فقالت انها تشعر بصداع وانها سوف تطلب من والدها أن يصطحبها في جولة بالخيول.

أدركت ليسا في وضوح أن بول. الذي كان مشغولا بإعداد الشراب، ليس هو والد الطفلة. ترى من يكون اذن؟ وجاءها الرد كأنه نوع من الالهام. ان راؤول دي جو وهو والد فرانسواز. ولكن، لو كان الأمر كذلك، فأين هي زوجته؟ ولماذا لاتقوم هي بمهام سيدة القصر بدلاً من والدته؟

لم تدر لماذا شعرت بالاضطراب لاكتشاف حقيقة أن راؤول دي جو زوج وأب. قالت لنفسها: لا بد أنه ترك زوجته في باريس، وان كان الأمر كذلك، فلماذا لاتكون الطفلة مع أمها؟

أفاقت ليسا من أفكارها على صوت فرانسواز تهتف بابا! لتدرك أن راؤول دي جو دخل الغرفة بقامته الفارهة وهو يرتدي حلة مساء أنيقة. وأسرعت الطفلة اليه في ولع، ولكنه لم يقبلها، واكتفى بأن

يربت على وجنتيها و يأمرها بأن تذهب الى مقعدها.

تظاهرت ليسا بالانشغال في البحث عن منديل في حقيبتها عندما كان يجري تقديم الكونت لماغي. كانت تخشى تلك اللحظة التي ستضطر فيها للحديث معه مرة أخرى. قال الكونت في بساطة لاتنطوي على أية معان مزدوجة أو نبرة سخرية:

«مساء الخير ياآنسة فيرفاكس، أعتقد أنك قد ارتحت الآن من عناء الرحلة.»

جاء بول يحمل كأس الشراب وجلس الى جانبها قائلاً في همس:

«وهكذا، تقابلت مع أخي العزيز. لا تخدعك مظاهر العظمة التي يبديها، انه يستطيع أن يكون رقيقاً في بعض الأحيان. والآن ياليسا! دعيني أبلغ أمي بعلاقتنا، انها معجبة بك للغاية، وأعلم أن ذلك سيسعدها كثيراً.»

أمسك بول بيدها، ولكنها جذبتها بحدة من قبضته. أدركت أن راؤول دي جو الذي كان يقف بعيداً بجوار المدفأة، لاحظ تلك الحركة السريعة. تمتمت في توتر:

«بول، أرجوك، ليس الآن. انني لا أستطيع التحدث معك في هذا الموضوع هنا. فلنرجىء ذلك الى الغد.»

«كما تشائين ياعزيزتي. ولكن ماذا حدث ياليسا؟ انك تبدين مضطربة للغاية. قولي لي.»

«كلا، لم يحدث شيء. فقط أعتقد أنني في حاجة الى هواء نقي. هل يمكنني الخروج الى الشرفة قليلاً؟»

«بالطبع. هل أصطحبك؟»

«كلا يابول. أفضل أن أكون بمفردي للحظة.»

قادها بول الى الشرفة، وهو يقوم بمحاولة أخرى لاصطحابها لكن دومينيك أوقفت تلك المحاولة بطلب كأس أخرى من الشراب في

ـرة آمرة.

ـدأت ليسا تشعر بالهدوء والسلام. وهي تنظر الى رذاذ الماء ـساقط من النافورة في وسط الفناء. وفجأة شعرت بتوتر أعصابها ـندما أدركت أنها لم تعد بمفردها.

«لقد تركت شرابك.»

جاء صوته لا ينم عن شيء، وكأن تلك المواجهة التي حدثت في الاسطبل كانت بين اثنين من كوكب آخر. أخذت منه الكأس التي ـدمها اليها شاكرة في اضطراب. ولكنه لم يغفل عائداً الى غرفة الاستقبال كما توقعت، بل انحنى على افريز الشرفة بجانبها. شعرت بالحرج لوقوفها معه في هدوء، بعد فترة صمت:

«ان أشياء كثيرة تتغير على مدى يوم، وليلة. أليس كذلك؟»

أدركت ليسا أنه عاد من جديد الى الحديث بكلام ذي معان خفية، وهكذا قررت مواجهته.

«عفواً ياسيدي الكونت. لقد سئمت لعبة القط والفأر تلك التي تقوم بها. فرغم ما دار بيننا اليوم، ليس في نيتي أن أترك مخدومتي، والعودة الى لندن. لأنني على ثقة من أن تصرفاً على هذا النحو سيتطلب من كلينا عملية طويلة ومحرجة من التفسيرات. سوف أبذل ما في وسعي لأنشغل طوال الوقت في عملي، كما أنني أعتقد أنك ستعود الى عملك في باريس، وهكذا فلن أفرض وجودي عليك بقدر ما أستطيع. ولكن...»

أوقفتها ضحكته عن الكلام. انها في حيرة تامة. كيف يتسنى لها التعامل مع شخص يغير مواقفه بالسرعة نفسها التي يغير بها ملابسه؟ قال بعد برهة في صوت أكد لها شكوكها في غرابة موقفه:

«سامحيني، ولكنّ مجرد التفكير في أنك ياآنسة فيرفاكس لن تفرضي وجودك أمر لا يمكن تقبله بسهولة. فالحقيقة أن جاذبيتك، ياجهلتي،

ليس لها إلاّ أن تفرض نفسها. وانني لا أشك في أنك تدركين ذلك. لقد فات الآن وقت انسحابك خلف دائرة الضوء.»

«على ضوء الظروف الراهنة، فان إطراءك لي ياسيدي، لايزيدني إلاّ مهانة.»

ساد الصمت من جديد. لم يبد عليه أنه يرغب الآن في شن هجوم جديد عليها. ولكن صمته زادها توتراً. انّ هناك تناقضاً في تصرفاته. كانت طوال الوقت منذ بداية تعارفهما تقف موقف الدفاع. وهي لن تسمح لذلك أن يتكرر الآن. وهكذا فان هروبها الآن سيكون بمثابة هزيمة لها.

سألها فجأة:

«منذ متى وأنت تعملين عند السيدة ديزموند؟»

كادت ليسا أن تثور فيه قائلة ألاّ يتدخل في شؤون غيره، ولكنها سيطرت على نفسها، وقالت وهي تتعمد أن تخرج صوتها قدر الامكان بدون تعبير حتى لايتمادى في أسئلته:

«انني أعمل كسكرتيرة عندها منذ أن جئت للاقامة في لندن قبل عامين.»

«وهل تعلم هي كيف تقضين وقت فراغك؟»

«انها تعلم أنني أقضي وقت فراغي في القراءة، والذهاب الى المسرح والسينما وتنظيف شعري. هل هذا هو ماتعنيه بسؤالك؟»

«أنت تعلمين تماماً ما الذي أعنيه. فانني اسأل عما اذا كانت تعرف شيئاً عن نشاطك الاجتماعي، أو أنك تخرجين مع رجال لاتعرفين عنهم شيئاً، ربما من أجل المال فقط؟»

«لتذهب الى الجحيم أنت وظنونك. أي حق يخوّل لك أن تكون حكماً على تصرفاتي. وكيف تجرؤ على الظن أنني أحتاج للمال، وعن مثل هذا الطريق القذر؟ ولتعلم ان ماغي تدفع لي مرتباً عالياً، كما أن لي

ظنين يمكن أن ألجأ اليها لو أنني احتجت مادياً. انني بالتأكيد لست حاجة الى أن أدع رجالاً غرباء يدفعون لي ثمن العشاء، حتى يكون هم حق شرائي في المقابل. لقد أصيبت جيني بالهلع عندما أبلغتها بما ث تلك الليلة.»

«وهل أخبرتها بذلك؟»

«بالطبع أخبرتها، ماذا كنت تتوقع اذن؟»

ك بالطبع لاتظنين انني ذلك الذئب؟»

ت وحدك الذي يظن أشياء في الناس ياسيدي الكونت.»

شعرت بشيء من البرودة في جو الشرفة، وبدا ذلك في رعشة خفيفة ت بها.

الجو بدأ يبرد، أعتقد أنني سأذهب الى الداخل.»

قال في هدوء وهو يمسك بذراعها:

حظة واحدة من فضلك. مازال أمامنا وقت الى أن يحين العشاء. وهناك ء هام أود أن أسأل عنه.»

قالت في محاولة للسيطرة على أعصابها:

خدمتك ياسيدي الكونت.»

كان يقف بالقرب منها، الى الحد الذي كانت تشعر فيه بدفء جسمه ورائحة العطر الذي يستخدمه.

طالما انك تتحدثين هكذا في صراحة، فانني أريد الحقيقة. هل أنت مخطوبة الى أخي؟»

كادت ليسا تبادره بقولها نعم في تحد، ولكن ارتعاش شفتيها عها من نطق الكلمة. حثها على الكلام في نبرة وضح فيها الاهتمام:

اني منتظر ردك يا آنسة. يجب أن أعرف.»

وقفت تحملق فيه، في محاولة غير مجدية لمعرفة التعبير الذي بدا على

وجهه. كان قلبها يدق في شدة، وشعرت فجأة انها سئمت لعبة التحـ
معه.

«انني لست مخطوبة لبول، ولم أكن مخطوبة له على الاطلاق.»

وقفا وقد لفهما الصمت. كانت ترغب في الفرار من قامته الطو
التي وقفت أمامها كأنه صقر مستعد للهجوم، ولكنها كانت حبيسة بين
جسمه وبين افريز الشرفة.

ببطء لانت قبضته على ذراعها، وبدأت أصابعه تتحسس كتفها
عنقها في رفق، وقال هامساً:

«هل تحبينه؟»

وقبل أن تتمكن من الرد عليه هتف بهما صوت فرانسواز من الداخل:

«بابا، آنسة. العشاء جاهز.»

«حالاً ياصغيرتي.»

«يجب أن أدخل.»

قال ممسكاً بذراعها من جديد:

«انتظري، انك لم تجيبي على سؤالي.»

انتزعت ليسا نفسها من قبضته قائلة:

«ليس في نيتي الرد على هذا السؤال. وأؤكد لك من جديد انه ليست هناك خطبة، أما مشاعري فهي شيء يخصني وحدي. والآن، اسمح لي... من فضلك، فانني أريد أن أذهب للعشاء.»

قال في صوت ساخر وهو يفسح لها الطريق الى غرفة الاستقبال:

«بالطبع، أتمنى لك شهية طيبة ياجميلتي.»

٥ ـ افتحي ياآنسة

عندما أخذ الجميع طريقهم الى غرفة الطعام لتناول العشاء. رأت ليسا بول محاولاً السير الى جانبها، وقد اشتعل فضوله لمعرفة ما دار بينها وبين الكونت. وأحست براحة عندما وجدت أنها لن تجلس الى جواره على المائدة وقالت لنفسها: لم أكن لأتحمل استجواباً جديداً.

الواقع أن مقعدها جاء الى جوار فرانسواز التي كانت تتصرف طوال الوقت كأنها فتاة بالغة. أما دومينيك فقد عمدت الى احتكار الحديث على المائدة مستخدمة في معظم الأوقات اللغة الفرنسية مما جعل ليسا تجد صعوبة في متابعة حديثها. ولا بدّ أن عائلة دي جو كانت واعية لذلك. اذ أن جميع أفرادها استمروا في الحديث باللغة الانكليزية، ولكن دومينيك تجاهلت الأمر. ولو لم تكن ليسا تشعر بالاضطراب لوجدت بعض التسلية في مراقبة حركات دومينيك مع بول الذي كان مقعده الى جوارها. فقد كانت طوال الوقت تتعمد ملامسته إما بوضع يدها على ذراعه، أو بالميل كثيراً عليه. أما عن بول فقد كان صامتاً ولا يبدي تجاوباً مع تلك المناورات.

قال راؤول دي جو:

«طلبت أن تقدم لنا القهوة في قاعة العرض. أرجو ألا تكوني متعبة ياسيدتي، وأن تلقي نظرة على كنوزنا هذه الليلة.»

ردت ماغي:

«كلا، على الاطلاق. انني أتطلع الى رؤيتها.»

وقع قلب ليسا بين ضلوعها، لأنها كانت تنوي أن تتعلل بالصداع لتنسحب الى غرفتها، ولكنها الآن تعلم أن ماغي تتوقع منها أن تصطحبهم الى قاعة العرض.

كانت جدران قاعة العرض مطلية باللون الأبيض، وكل صورة زيتية مضاءة بمصباح خاص بها. نظرت ليسا باهتمام خاص الى صورة الكونت هنري، الذي فرّ أثناء الثورة الفرنسية، بعد أن قتلت تلك الثورة أباه. هناك في انكلترا حيث وجد الأمان، وعاد من هناك بزوجة انكليزية. كان هناك تشابه واضح بين أبناء العائلة، خاصة الأنف الدقيق الشامخ الى أعلى، والذقن المتعالية. لو أن ذلك المعطف ذا الياقة العالية، ورباط العنق الذي يرتديها في الصورة، استبدلا بسترة العشاء، ورباط العنق الأسود، لأعتقدت أن الواقف في الصورة الزيتية هو راؤول دي جو، ينظر الى عشيرته في شيء من الصلف.

قالت ليسا لنفسها: ياله من وحش مغرور. وهي تتحول ببصرها في شيء من التعاطف الى تلك الفتاة الشقراء الرقيقة التي تقف في الصورة الزيتية المجاورة، ترتدي ملابس على الطراز الامبراطوري، ذلك العهد الذي أعقب الثورة والذي أمكن خلاله إعادة ثروة العائلة وقصرها.

جاءها من الخلف صوت راؤول وقد بدا سعيدا:

«لقد كان زواجاً قائماً على حب كبير. كان كل منهما متفانياً في الآخر.»

كانت صناديق العرض الزجاجية والعلب تحيط بقاعة العرض في

بين الصور الزيتية. وبداخل هذه الصناديق تعرض التحف والقطع الأثرية الثمينة. وفي وسط الغرفة طاولة دائرية كبيرة وضعت عليها بعض العلب المخملية الكبيرة. وقد أثار ذلك في ليسا شيئاً من الاضطراب عندما وضعت القهوة على الطاولة.

في تلك اللحظة، دخل بول، الذي كان قد اختفى لبضع دقائق، وهو يحمل شمعدانين كبيرين من الفضة. وضعهما على الطاولة وأشعل شموعهما. أطفئت أنوار قاعة العرض وهم يتجمعون حول الطاولة. قال راؤول مبتسماً:

«عذراً لهذه المأساوية. ولكن أضواء الشموع تناسب كثيراً هذه العلب.»

التقط أكبر علبة من مجموعة العلب المخملية وفتحها. انعكست أضواء الشموع على الفور الى بريق يخطف الأبصار منبعث من أحجار الماس والزمرد في واحد من أكثر العقود التي شاهدتها ليسا بهاء. التقطته الكونتيسة في حب ووضعته للحظة حول فتحة العنق لرداء السهرة الذي كانت ترتديه حتى يعطي التأثير المطلوب وقالت:

«انه عقد دي جو. لقد ارتديته يوم زفافي، وفي بعض المناسبات الخاصة للأسف. انه أثمن من أن أرتديه كثيراً.»

شاهدت ليسا صورة زيتية لعروس تضع خماراً وحول عنقها يتلألأ العقد نفسه، والى جانبها وقف راؤول دي جو. نظرت ليسا الى أسفل ووجدت أنها تقبض على الطاولة بشدة تؤلمها. تركت ليسا الطاولة وتراجعت الى الخلف حتى تخفي مشاعرها. ولكن لم تستطع اخفاء تلك الحركة عن راؤول الذي بادلها نظرة في لحظة بدت ممتدة الى الأبد. بدا الأمر وكأنهما لا يشعران بوجود أحد سواهما. لا فائدة الآن من انكار ما تقوله لها مشاعرها المشتعلة. محال أن تنسى، أو تقنع نفسها، بأنها نسيت تلك اللحظات القصيرة التي تقارب فيها جسداهما، ذات

ليلة في لندن، مهما كان الدافع من ورائها. انها تعلم جيداً الآن انه لو مد اليها ذراعيه، لتبعته بدون وعي منها.

قالت السيدة دي جو:

«والبروش هذا، انه يقدم دائماً لعروس الابن الثاني. هو قطعة غالية الثمن، وان كانت ليست بقيمة العقد نفسه.»

نظرت ليسا الى قطعة المجوهرات الثمينة. بالطبع لقد أعاد بول الى مكانه. انها لم تتوقع على الاطلاق أن تراه مرة أخرى.

والأسوأ من ذلك أن بول نظر اليها نظرة ذات مغزى وهو يبتسم.

لم تتوقع ليسا أن تنام تلك الليلة، ولكن تغلّب الارهاق الجسدي على ماكانت تشعر به من قلق نفسي. استيقظت لتجد غرفتها غارقة في أشعة الشمس الوردية. تناولت إفطارها بسرعة وارتدت ثيابها، وخرجت تبحث عن ماغي فوجدتها في غرفتها جالسة الى جانب النافذة، وهي منشغلة بقراءة كتاب مغلف بالجلد. رفعت ماغي رأسها قائلة:

«انها المذكرات الشهيرة.»

«هل أثارت اهتمامك كما كنت تأملين؟»

«أكثر مما تتصورين. رغم أن قراءتها وترجمتها تستغرقان وقتاً طويلاً.»

«هل أنجزت عمل الليلة الماضية؟»

«ليس كثيراً. لقد وضعته هناك على الطاولة في مغلف أصفر.»

كان الاتفاق قد تم في الليلة الماضية على أن تستخدم ماغي غرفة مكتب الكونت في عملها، وتم وضع جميع أدواتها هناك.

كانت ليسا تشعر براحة لأن صاحب الغرفة ليس له أثر في أي مكان. ومن جديد وجدت نفسها تفكر في والدة فرانسواز، ترى أي نوع من النساء هي، وأين هي؟ فهي بالتأكيد لم تضع أية بصمة خاصة بها في تلك الغرفة الجافة.

خرجت من أفكارها فجأة على صوت دق الباب، وظهرت السيدة باريت قائلة:

«جئت لأرى اذا كان كل ماتحتاجين اليه على مايرام ياآنسة.»

«أظن كل شيء على مايرام. أشكرك. كان كرماً من الكونت أن يتخلى لنا عن غرفته على هذه الصورة.»

«ان أحداً لا يستخدم هذه الغرفة سوى السيد، وهو يقضي معظم وقته في باريس. والسيد بول له مكتب خاص به في الضيعة، أما الآنسة آن ماري فلا تحب أن تشغل بالها بالعمل بعد أن تترك باريس.»

«وماذا عن زوجة الكونت؟»

ردت عليها السيدة باريت في دهشة:

«كيف ذلك؟ آه، ان السيدة نادراً ما كانت تجيء الى هنا. كانت هي أيضاً تفضل الاقامة في باريس. المسكينة. انني لا أظن أن قدميها وطئتا هذه الغرفة.»

«انك تتحدثين بصيغة الماضي.»

«فعلا ياآنسة. فقد لقيت السيدة مصرعها منذ ست سنوات عندما كان عمر فرانسواز الصغيرة عامين فقط.»

«يالفظاعة، لم يكن لدي أدنى فكرة. أنت تقولين انها لقيت مصرعها، هل تعنين أنه وقع لها حادث؟»

«حادث فظيع ياآنسة. كانت الصغيرة مريضة هنا، وكانت السيدة في طريقها اليها، واصطدمت سيارتها بسيارة نقل قتلتها على الفور. لقد كان ذلك رهيباً! وبدا على السيد الكونت أنه فقد عقله. فقد ظل طوال أسابيع بعد الحادث يرفض التحدث مع أي انسان، أو السماح بذكر ماحدث أمامه.»

قالت ليسا في هدوء:

«ماذا كان شكلها؟»

«كانت جميلة جداً، وأنيقة جداً. وعملت كعارضة أزياء قبل زواجها. ولاعجب أنها وجدت سانت دينيس تدعو الى السأم رغم كل ما كان يحيط بها من أضواء.»

كيف كانت تجد سانت دينيس مثيرة للسأم ولها مثل هذا الزوج الجذاب، وتلك الطفلة الجميلة.

قبل أن تغادر السيدة باريت الغرفة قالت وهي تلتفت الى ليسا:

«السيدة الكونتيسة تأمل أن تتناولي القهوة معها ومع السيدة ديزموند في الساعة الحادية عشرة.»

وجدت ليسا أن ماغي لم تقل الحقيقة، عندما ذكرت أنها لم تنجز سوى عمل قليل في الليلة الماضية. فقد كان هناك من العمل مايشغلها حتى الحادية عشرة تماماً.

أثناء مرورها عبر الردهة، سمعت بول يناديها بسرعة. لحقها وأمسكها من ذراعها:

«تعالي الى الحديقة لحظة. يجب أن أتحدث اليك.»

«ولكنني متوجهة لتناول القهوة مع والدتك.»

«سأحدثك في شيء هام. يجب أن أراك على انفراد.»

كان الجو لطيفاً في الحديقة، ولكنها استنتجت من الغضب الذي بدا على وجه بول ، أن هناك عاصفة آتية في الطريق. سألها:

«هل تحدث معك راؤول بشأني ليلة أمس؟»

«لقد جاء ذكرك بالفعل.»

«هل سألك ان كنا سنتزوج؟»

«أجل، ولكنني أخبرته أننا لن نفعل ذلك.»

أحست ليسا أن بول سينفجر من الغضب فقالت له تهدئه:

«بول، لقد حذرتك في لندن من أنني سوف آتي الى هنا فقط على أساس أنه ليس هناك شيء يربط بيننا. وانني لمسرورة أنه أمكنني الحديث اليك الآن بهذه الصراحة. هناك شيء يجب أن أقوله لك.»

«هناك شيء آخر يجب أن أبلغك اياه. ان أخي، السيد الكونت أبلغني أنه يرغب في أن أتزوج أنا من دومينيك.»

حلقت فيه ليسا وهي تمسك أنفاسها.

«هل تظنين أنني أمزح؟ ان أباها من رجال صناعة المنسوجات الأثرياء، ويريد راؤول أن يبدأ في مشروع لانتاج بعض تصميات فونتين بالجملة. وهكذا فانه يرى من المناسب لخططه لو أن مصانع فومون أصبحت جزءا من ممتلكات العائلة.»

«ولكن ذلك شيء يرجع الى عصور الاقطاع.»

«أوه، انك لاتعرفين أخي ياعزيزتي. لقد خمنت أنه يخطط لشيء ما عندما تبعك الى الشرفة الليلة الماضية. وبالفعل لقد طلب مقابلتي هذا الصباح، وأبلغني بوضوح ماذا يريد مني أن أفعل. وبالطبع، لقد عارضته، وأبلغته أنني أرغب في الزواج منك. فقال انه أخذ منك وعداً بأنك لن تكوني زوجتي.»

«ان ذلك ليس صحيحاً تماماً. لقد أبلغته فقط أننا لسنا مخطوبين.»

أمسك بول بيدها وقال:

«ليسا انك الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتي، فانني لو أبلغته أننا خطيبان بالفعل...»

«كلا، لايمكن أن يحدث ذلك. كل ما عليك هو أن تقف في وجهه.»

«أوه ياعزيزتي، من السهل عليك أن تقولي ذلك. ولكنك نسيت أنني أعتمد عليه في كل شيء، طعامي، وملبسي، وعملي.»

قالت ليسا في رقة:

«انني جد اسفة يابول أن اتخذ في هذه اللحظة قراراً بشأن مستقبلنا. لقد أدركت أن زواجنا لن يكون ناجحاً. وتأكد لي ذلك الآن بعد ما ذكرته لي. انني معجبة بك للغاية، ولكن ذلك لايكفي، لايكفيني أنا في أية حال.»

«كنت أعرف أنك ستقولين ذلك. ياإلهي! ماذا عساي أن أفعل؟»

تعجبت ليسا من قبوله للأمر الواقع هكذا في هدوء. فقد كانت تتوقع منه على الأقل نوعاً من ردّ الفعل.

استعادت ليسا في تلك اللحظة عدداً من الملابسات الغريبة، تلك الطريقة الآمرة لدومينيك على سبيل المثال، وذكرها لمراسلات بينهما. سألت نفسها: هل بدأ بول يتجه اليها هرباً من علاقة مع دومينيك أصبحت غير مرغوب فيها؟ وتذكرت تلك اللهفة العاجلة التي حاول بها أن يحثها على قبول الخطبة بينهما. انها مازالت تعتقد أنه مغرم بها، ولكن يبدو أن غرامه بها أذكاه حاجته الماسّة للخروج بنفسه من براثن دومينيك. قالت في النهاية:

«لا أدري ماذا يجب عليك أن تفعل. ولكنني أعتقد أنه ما من أحد يمكنه اجبارك على شيء لا ترضاه. انك رجل ناضج، ويمكنك الاعتماد على نفسك اذا اردت. لا بدّ أنك أعطيت أخاك الانطباع بأنك لن تعترض على الزواج من دومينيك. انني لا أستطيع التصديق ان باستطاعته أن يرسم للآخرين حياتهم مثلما يصنع في تصميم رداء.»

«أعترف لك أنني وجدتها جذابة في وقت ما، عندما عادت من سويسرا. ولكنني أكتشفت على الفور حقيقتها. ليسا، حتى ان كنت تكرهينني، فلا أظنك ترغبين في رؤيتي زوجاً لتلك الصغيرة... ليسا ياعزيزتي، هل أطلب منك التفكير فقط في التظاهر بأنك خطيبتي؟ ولن أطالبك بشيء آخر حالما أبتعد عن الخطر.»

«حتى يكون ذلك؟ عندما تتزوج دومينيك شخصاً آخر؟ وماذا عليّ أن أفعل خلال تلك الفترة؟ أن أتعايش مع كذبة من أجل مصلحتك؟ بخرافتك؟»

«أرجوك ياليسا، انني في موقف يائس.»

«وأنا فلست في مثل هذا الموقف.»

قالتها في قسوة، وسارت نحو غرفة مكتب الكونت. كان الباب مفتوحاً قليلاً. شاهدت راؤول دينيس في الداخل يتحدث في التليفون. استدارت على عقبيها، وقد قررت أن تعود في وقت آخر، ولكن شد انتباهها شيء مما كان يقول:

«لقد تمت تسوية تلك العلاقة التافهة لبول، ولم يكلفنا الأمر درهماً. اعتقدت في وقت ما، أنه سوف يلقي بنفسه على الحمقاء الصغيرة، إلاّ أنني تصرفت بمهارة.»

وجدت ليسا نفسها تطبق بشدة على مقبض الباب الى درجة أن أصابعها آلمتها. شعرت بالمهانة والذل. ان الاحتقار الذي بدا في صوته الآن يتعارض تماماً مع ظنت أنها سمعته منه ليلة أمس.

«سوف أراك فيما بعد. أرجو أن يسير كل شيء وفق مانأمل الى اللقاء.»

وعندما سمعت صوت وضع السماعة لانتهاء المكالمة، كانت قد فرت هاربة الى غرفتها لاتلوي على شيء.

«سوف أعلن هذا النبأ على العشاء الليلة. ليسا، انك ملاك! ولكن ما الذي جعلك تغيرين رأيك؟»

«لا أهمية لذلك. ولكن بشرط ألا تنسى أنني لا أنوي الزواج منك الآن، أو في أي وقت. سوف أستمر في التظاهر بأنني خطيبتك لأسابيع قليلة الى أن نعود الى انكلترا، برغم كرهي أن أخدع والدتك على هذا النحو.»

«أوه، ان أمي ستتفهم الموقف. سأقوم بابلاغها بالأمر كله فيما بعد. انها

لاتهتم كثيراً بدومينيك.»

ثم قال وهو يضحك في سعادة:

«ان كان راؤول يرغب في اندماج العائلتين في الزواج والعمل فليتزوجها هو. انني أتوق الى رؤية وجه راؤول عندما ألقي بهذه القنبلة الليلة. ان شقيقتي ستأتي من باريس لقضاء اجازة آخر الأسبوع، وهكذا سيكون حفلاً بحق.»

الآن، وبعد أن هدأت أعصاب ليسا، بدأت تتساءل عما اذا كانت قد تسرّعت في هذا الأمر. لقد بدا لها أنّ افساد خطط راؤول هو الانتقام المناسب، ولكن ذلك لم يشعرها بالرضى. كما لم يفلح في إزالة شعورها الحاد بالاهانة الذي لازمها طوال اليوم. لحسن الحظ، لم يكن أمامها وقت لمزيد من التفكير، فقد نزلت اليها ماغي بكومة كبيرة من الأوراق لتعيد نسخها على الآلة الكاتبة.

سألت ليسا نفسها، وهي ترتدي ثيابها استعداداً للعشاء: من قال إنّ الانتقام يجلب الراحة؟

وقالت لنفسها وهي ترتدي ثوباً أسود اللون طويلا: أبدو كما لو كنت في حالة حداد. والواقع أنها كانت تكره هذا العشاء، ومواجهة الجميع، بما فيهم تلك الأخت الجديدة التي لم ترها من قبل، أو أن تسمع بول وهو يلقي بقنبلته.

تعثرت وهي في طريقها خارج باب غرفتها بشيء، وضع على الأرض أمام الباب كانت لفافة كبيرة. التقطتها وعادت بها الى غرفتها. كانت علبة كبيرة مزينة من الخارج بحرف ف، وهناك مغلف عليه اسمها وضع داخل الغطاء الخارجي للفافة. وبداخله بطاقة كتب عليها: لتعويض ما مزقته من قبل. والتوقيع ر . فتحت ليسا العلبة على عجل لتجد رداء له زرقة السماء، ويعطي ضوءا فضياً كأن النجوم

نثرت عليه. استرجعت على الفور صوت ماكس برينتيس وهو يهتف ليلة منتصف الصيف، يتلألأ تحت شعرها، ايه، ياراؤول.

بيدين مرتعشتين وضعت الرداء في علبته ومعه البطاقة ودفعتها الى داخل الخزانة. قالت لنفسها: سوف يعثرون عليه بعد ذهابي.

كان الجميع في غرفة الاستقبال عندما دخلت ليسا. أن ماري دي جو شابة في نحو الثانية والعشرين، لها رشاقة أخيها الأكبر نفسها، ووجهها جميل معبر. كانت تضع فرانسواز على ركبتيها والاثنتان منهمكتان في قراءة أحد الكتب المصورة. قام بول بمهمة التعارف، وقاد ليسا الى ركن في الغرفة متظاهراً بإعداد شراب لها. وقال هامساً:

«يبدو عليك الشحوب ياعزيزتي.»

«بل انني أشعر بالوهن، بول. ألا تظن أنها فكرة غير صائبة، أن نخدع والدتك، حتى ولو لفترة قصيرة، ونخدع الآخرين أيضاً؟ لا بد أن هناك طريقة أخرى لاقناع راؤول، ودومينيك اذا احتاج الأمر، بأنك لا ترغب في هذا الزواج.»

«ليسا، لايمكن أن تخذليني هكذا! لقد أعطيتني وعداً.»

«أجل. ولكن ما كان يجب عليّ أن أفعل. لقد كنت مضطربة.»

كانت على وشك إبلاغه بما سمعته مصادفة من تلك المكالمة الهاتفية، ولكنها قررت ألا تفعل. فان العلاقات بين راؤول وبول متأزمة بالفعل، وهي لاتريد أن تعطيه سبباً آخر لمزيد من التوتر.

«ولكنك وعدتني. وتأكدي أنني لن أضايقك بمجرد انتهاء هذه المشكلة، ليسا. ان قلب والدتي معتل، وهي تحزن كثيراً عندما نتشاجر أنا وراؤول. وبهذه الخطة، لن يكون هناك شجار، فليس بوسع راؤول أن يقول شيئاً.»

«وهو كذلك. ولكنني لن أستمر في هذه اللعبة أكثر من الوقت اللازم. كما أنه لن يكون عليّ أن أتصرف وكأنني خطيبتك حقيقة.»

قام على الفور وقبل وجنتها قبل أن تستطيع منعه. نظرت حولها لتعرف ما اذا كان هناك أحد قد لاحظ تلك الحركة، وقابلتها على الفور، نظرة استياء من جانب دومينيك التي كانت تخطو الى داخل الغرفة وبجانبها راؤول دي جو. كانت نظرته لاتنم عن شيء، ولكنها أدركت أنه لاحظ مداعبة بول لها.

ظلت أعصابها متوترة طوال العشاء، انتظاراً لاعلان بول عن خطبتها، قدّم الشراب، وزاد توترها، مالت السيدة دي جو برأسها على راؤول وقالت وهي تبتسم:

«يبدو أن هناك مناسبة سنحتفل بها.»

«يبدو أنني لا أعلم شيئاً عن سبب هذا الاحتفال.»

قاطعهم بول، ووقف قائلاً:

«أريدكم جميعاً أن تشربوا نخب ليسا، الآنسة فيرفاكس، التي شرفتني بموافقتها على أن تكون زوجتي.»

ساد الصمت، وكانت آن ماري هي البادئة بكسره:

«تهنئتي.»

قالت السيدة دي جو في حيرة ظاهرة:

«بول، ولدي! ما هذه المفاجأة التي ألقيتها علينا.»

والتفتت الى ليسا وقالت:

«ياعزيزتي، لم تكن لدينا أية فكرة.»

قال بول:

«لقد تقابلنا في لندن، وعرفنا منذ اللحظة الأولى.»

قالت ليسا في وهن وهي تحاول أن تبتسم وتلعب دور الخطيبة

السعيدة:

«كل ما في الأمر أننا لم نكن نعرف اللحظة المناسبة لكم جميعاً لنعلن ذلك.»

وجهت نظرها في صعوبة الى راؤول دي جو. لقد توقعت منه ثورة من الغضب أو الاحتقار، أو حتى الحزن. ولكن لم يبد على وجهه أي نوع من التعبير.

وإلى جانبه دومينيك التي لم تحاول اخفاء غضبها واستيائها من هذا التحول في مسار الأحداث، وأخذت تتحدث مع بول بالفرنسية في صوت خافت. كان هو يستمع اليها وأصابعه تضغط بشدة على الكوب. كادت ليسا أن تشعر بضغط تلك الأصابع حول عنقها.

قامت ليسا بسرعة وقالت:

«أرجو المعذرة، انني، انني أشعر بصداع خفيف، انها الاثارة فيما يبدو.»

أبدت السيدة دي جو تعاطفاً على الفور، ووعدت بإرسال مشروب ساخن الى غرفتها وقالت وهي تربت على يدها في ود:

«سيكون لنا في الغد حديث خاص.»

لم تستطع ليسا النوم رغم احتسائها للشراب الساخن، قامت من سريرها ووقفت بجوار النافذة. انها لم تعثر حتى الآن على تلك الحديقة الصغيرة التي مازالت تحتفظ بأسرارها. في الغد، سوف تلجأ اليها هرباً من غضب راؤول، ومن مشاورات دومينيك، وحتى من ذلك الحديث الخاص مع الكونتيسة. فجأة توترت أعصابها. لانها سمعت صوتاً في الخارج. لابدّ أنها ماغي تريد تفسيراً لما حدث، ولها كل الحق في ذلك. ولكن ألم يمكنها أن تنتظر الى الغد. عبرت الغرفة متجهة الى الباب. وضعت يدها على المقبض لتفتحه، ولكنها سمعت صوت راؤول دي جو يقول في همس: ياآنسة. تجمدت أطرافها، وجف

ريقها، وأسندت رأسها على الباب قبل أن تسقط. قالت لنفسها: أوه، كلا لا يمكنني مواجهته الآن. سمعت من جديد طرقة على الباب، وهو يقول بصوت أعلى:

«يا آنسة،انني أعلم أنك هنا، من فضلك افتحي الباب، يجب أن أتحدث اليك على الفور»

ماذا يعني بمجيئه الى غرفتها على هذا النحو؟ ان الوقت مازال مبكراً، ومازال الآخرون، بدون شك، موجودين في غرفة الاستقبال، هو بالتأكيد لاينوي أن يستخدم من جديد تلك الأساليب التي مارسها في لندن معها. يمكنها بسهولة أن تفتح له الباب، ولكنها تعرف تماماً ما الذي سيحدث حينئذ. لقد قالها بنفسه انه لن يألُ جهداً في أن ينهي علاقتها ببول، وهو في الوقت نفسه وضح لها تماماً، أي نوع من النساء يعتبرها.

«ليسا! افتحي الباب الآن، يجب أن أراك.»

لأول مرة يناديها باسمها، وفي إصرار حسي.

أحست بمقبض الباب يتحرك في يدها وهو يحاول فتح الباب. ولكن الباب، لحسن الحظ ، كان مغلقاً بالمفتاح. لقد نجت أخيراً منه، ومن نفسها أيضاً. كانت تشعر أنها على وشك الاستسلام له. ذلك الاستسلام الذي يبدو في وجوده أمراً حتمياً، ومرغوباً فيه أيضاً.

انتظرت أن يتكلم ثانية، ولكنها بدلاً من ذلك سمعت وقع أقدامه وهو يبتعد. فتحت الباب في هدوء وهي تترك العنان لدموعها التي انسابت من شدة التوتر والمشاعر المضطربة.

٦ ـ براعم المستقبل

نامت ليسا تلك الليلة في ساعات الصباح المبكرة. أيقظتها الخادمة حاملة صينية الافطار، حيث وجدت عليها ورقة مكتوبة بخط ماغي، قرأت فيها حسناً ياصغيرتي. أرجو أن تكوني مدركة لما أنت مقبلة عليه. سوف أرافق السيدة هذا الصباح في جولة لمحال التجميل، أراك فيما بعد.

كانت ليسا تود لو أنها أمضت هذا الصباح منشغلة في عملها، أو أن تشعر بوجود ماغي على الأقل بجانبها تحميها من العالم كله. والآن، عليها أن تجد ماتشغل به نفسها طوال اليوم. سمعت طرقاً خفيفاً على الباب. توترت أعصابها بدون وعي منها، ولكنها هدأت عندما رأت أن ماري تدخل عليها وهي تحمل إناء فضياً للزهور به ثلاث وردات حمراء مازال الندى عالقاً بها.

«أرجو أن تكوني في حال أحسن، ، وبول أيضاً. لقد كانت حالته سيئة بعد ذهابك الليلة الماضية. قطعت هذه الورود من حديقة جدتي. لقد تفتحت مبكراً، ولكن، كما تعلمين، ان مظلة الحديقة تعمل على حماية الورود. كما كانت تقول جدتي التي تتفتح أكمامها مبكرة، فتعيش الى ما لا نهاية.»

«ان هذا كرم كبير منك.»

«انت انكليزية مثلها، ولذلك شعرت أنك ستحبين هذه الورود. انها تحتاج الى عناية، ولكن ليست لدي تلك اللمسة التي كانت تضيفها جدتي على الحديقة. لقد أصبحت مهملة ووقتي لايساعدني كثيراً على العناية بها.»

«ربما أمكنني المساعدة. انني، انني أهوى العناية بالحدائق.»

«فكرة طيبة. ان قضاء يوم تحت أشعة الشمس سيفيد كلاً منا، كما أنه سيتيح لنا الفرصة لمزيد من التعارف. لقد كان إعلان بول أمس بمثابة صدمة. انا، انني، كنت أتوقع أن يتزوج من فتاة أخرى، اغفري لي صراحتي.»

«أجل، أعلم ذلك.»

«كنت تعلمين؟»

«أرجو ألا يكون في الوضع الجديد خيبة أمل للجميع.»

«كلا بالطبع. ولكن كل ما في الأمر أنها أحبته منذ أن كانا صغيرين. كنا نأمل جميعاً أن يجيء يوم يعرف فيه بول... ولكن يخطىء دائماً من يحاول أن يرسم للآخرين حياتهم. لقد اختارك بول، ولن يمضي وقت طويل قبل أن نعتاد وجودك بيننا. متى تعتزمان الزواج؟»

«لم يتقرر ذلك بعد؟ سوف أقوم الآن لتغيير ملابسي. أعتقد أنه من الممكن أن ننجز شيئاً في الحديقة قبل الظهر.»

«بالتأكيد، سوف أذهب لاحضار الأدوات.»

كان صباحاً منعشاً، وشعرت ليسا بارتفاع معنوياتها مع احساسها بأشعة الشمس تلامس وجهها. تقدمتها آن ماري نحو الحديقة. وأسلمت ليسا الأدوات القديمة التي جاءت بها واختفت من جديد. ثم عادت وهي تحمل مجموعة أدوات للزراعة جديدة وقد ظهر

عليها الانتصار.

«ان بيير يخفي دائماً هذه الأدوات. فهو لايوافق على أن تقوم النساء بأعمال الحدائق.»

سارتا في طريق ضيق تتشابك فوقه أغصان الأشجار وعلى جانبيه. كان الطريق أشبه شيء بنفق أخضر، وفي نهايته ظهر جدار عال تغطيه تعريشه نباتية يتوسطه باب على شكل قوس منخفض. رفعت آن ماري المزلاج ودلفتا الى الحديقة.

حبست ليسا أنفاسها. انها تشاهد الآن ذلك الكم الكبير من براعم بداية الصيف الذي كانت تراه من نافذة غرفتها. وهناك مجموعات مختلفة من الزهور، ولكن الورود أثارت اهتمامها. فكانت رائحتها تملأ الهواء. قالت ليسا وهي تأخذ نفساً عميقاً:

«انه أشبه بالحلم.»

«أنت محقة. في الواقع، كانت جدتي دائماً تصف حديقتها بحديقة الأحلام. وكلما واجهتها مشكلة، والمشاكل كثيرة كما تعلمين، في بداية انشاء مشروع فونتين، وكانت تأتي الى هنا لتجلس قليلاً، ولا يمضي وقت طويل حتى تختفي تلك المشاكل.»

وقفت ليسا لحظة تملأ نفسها بالسكينه التي تحيط بالمكان. ولأول مرة منذ مجيئها الى القصر، انطلقت ضاحكة بصوت عال. قالت آن ماري:

«من الأفضل أن نبدأ العمل.»

بعد ساعتين من العمل الشاق، قفلتا عائدتين الى القصر لتناول الغداء. وهما تشعران برضى كامل بما أنجزتاه من عمل. وقبل أن تفترقا للاغتسال، أخذت آن ماري يد ليسا في يدها وقالت:

«في الليلة الماضية، عندما ألقى بول بقنبلته، لم أكن أظن أنني

حتى سأميل اليك. ولكنني كنت مخطئة. ان من عيوب العائلة أن تتخذ مواقف مسبقة. والآن، هل أصبحنا صديقتين؟»

«انني آمل ذلك حقيقة.»

سيطرت على ليسا الرغبة في أن تفضي الى آن ماري بحقيقة تلك الخطبة، ولكنها شعرت أن في ذلك إجحافاً ببول، خاصة وأنها لم تأخذ رأيه في إبلاغ شقيقته بالحقيقة.

ومما أثار حيرتها أيضاً ذلك الاهتمام الذي أبدته آن ماري بمشاعر ميشيل. هل حقيقة كانت دومينيك تحب بول منذ طفولتها؟ أنها لم تر في تصرفاتها معه تلك الرقة التي ترتبط غريزياً بعلاقة حب طويل، بل على النقيض كان هناك نوع من التملك في تعاملها معه.

تناولت الفتاتان غداءهما بمفردهما. قالت السيدة باريت أن الكونت وبول ذهبا الى الضيعة، كما اصطحبت الآنسة فومون السيدتين الكبيرتين في جولتها.

توجهت ليسا، بعد الغداء، الى غرفة المكتب، ووجدت كما توقعت كومة من الأوراق التي تركتها ماغي لها لتنسخها. جلست من فورها الى العمل الذي أخذ منها كل اهتمامها. الى أن سمعت صوت الباب يفتح. توقعت أن تكون ماغي، وقد عادت من جولتها، ولكنها بدلاً من ذلك وجدت راؤول دي جو، واقفاً يراقبها.

انتابها على الفور ذلك الشعور بأنها معرضة للهجوم، هبت واقفة وقالت:

«مساء الخير ياسيدي.»

هز لها رأسه في أدب، وواصل النظر اليها، استمر بينهما صمت لا نهائي، شعرت ليسا بضربات قلبها تسرع ويعلو صوتها. قطع أخيراً لحظات الصمت وقال:

«لماذا لم تفتحي لي الباب ليلة أمس؟»

«كنت أعتقد أن الاجابة على ذلك واضحة، وخاصة بالنسبة إليك ياسيدي.»

«حقاً؟ لا أعتقد من تلميحاتك أنك تظنين أنه يخطر لي إغواء فتاة هي ضيفة تحت سقف بيتي.»

«لست في حال يمكنني من أن أعرف على وجه الدقة، ما الذي يمكن لك أن تفعله، ومع ذلك، ولمعرفتي برأيك السابق فيّ، فان سماحي لك بالدخول الى غرفة نومي هو آخر شيء يمكن أن أفعله.»

«هكذا، مع علمك بأن هناك شيئاً عاجلاً أريد قوله لك؟»

«ليس بيننا شيء لا يمكنك أن تقوله هنا، والآن. أعتقد أنك غاضب لأنني خدعتك بالنسبة الى علاقتي ببول.»

«لم تخدعيني ياليسا، واسمحي لي أن أناديك بهذا الاسم في بعض الأحيان، طالما أنك ستكونين زوجة أخي. فلست أيضاً غاضباً. ويمكنك القول أن مشاعري في هذه اللحظة مختلطة.»

تقدم اليها، وبحركة غريزية، خطت الى الوراء، استمر هو في التقدم ببطء، وهي في التراجع الى الخلف الى أن وجدت ظهرها الى الحائط. ولا مهرب أمامها. لم يتوقف راؤول دي جو عن التقدم الى أن اقترب منها كثيراً ووضع إحدى يديه على الحائط المقابل لها بحيث أصبحت محاصرة تماماً، وقف صامتاً ينظر الى وجهها.

وقفت ليسا بلا حراك، تجتاحها مشاعر الارتباك والرغبة في هذا الرجل الواقف أمامها لماذا سمحت لبول بوضعها في هذا الموقف السخيف؟ أرادت أن تهتف له بالحقيقة، تقول له انها ترغبه هو، وليحدث ما يحدث.

ربت راؤول على وجنتيها برقة بالغة، ثم هبط بأصابعه ليتحسس

عنقها وخطوط وجهها. قال وهو يحاول فك الأزرار العلوية لقميصها:
«ان إحكام الأزرار على هذه الصورة لايناسبك، مثلما عهدتك من قبل.»

رفعت ليسا يدها لتصفعه، ولكنه قبض على يدها في الهواء وقال:
«لا أنصحك بأن تفعلي هذا، وإلاّ وجدتني مضطراً للرد عليك بطريقة لن تعجبك.»

«هكذا! فيم اذن كان تساؤلك عن السبب الذي منعني من فتح الباب لك؟»

«وانني لأتساءل أيضاً عن سبب هروبك مني الآن على هذا النحو. ماذا تتخيلين أن أفعل معك هنا في غرفة مكتبي وفي هذه الساعة من النهار، حتى لو لم تكوني مخطوبة لأخي؟»

أطلق يدها وخطا الى الوراء، تحسست ليسا رسغها الذي كانت آثار أصابعه ظاهرة فيه. كانت تشعر بجفاف في حلقها. قالت في شبه همس:

«ما الذي كنت تود قوله لي، الليلة الماضية ياسيدي؟»

«لم يعد الأمر يستحق العجلة.»

«اذن، أرجوك أن تذهب، وتدعني وشأني.»

«كما تشائين، واسمحي لي أن أتقدم بتهنئتي على خطبتك.»

ثم جذبها بشدة، وأحست أن ضلوعها ستتكسر تحت ضغط ذراعيه وهو يحتضنها.

ثم توجه نحو الباب في رشاقته المعهودة، توقف لحظة ليقول لها:
«ذكريني أن أعيد لك مجوهرات العائلة.»

استمعت ماغي في صمت وفي ذهول لليسا وهي تقص عليها القصة البائسة بحذافيرها. ثم قالت لها في عتاب:

«ابنتي العزيزة. ما الذي أصابك عندما قررت أن تفعلي هذا الجنون؟ ولكن لاتلقي باللوم كله على بول. ان وراء كل ذلك هذا الأخ الفظيع جيل الطلعة.»

«انك على حق تماماً. انني لم أكره أحداً في حياتي مثلما أكرهه.»

«والآن أعتقد أن أفضل مانفعله هو أن نحزم متاعنا ونعود الى لندن قبل أن يتمكن بول من اقناعك بالزواج منه.»

«أوه، كلا! أعني، الكتاب. ان ذلك سوف يفسر كل شيء.»

«انني أعترف بأنه لم يكن في نيتي العودة هكذا سريعاً.»

ثم نظرت ماغي الى ليسا بإمعان وأردفت:

«الأمر لن يكون سهلاً عليك خلال الأسابيع القليلة المقبلة. وانني أشعر أيضاً بوخز الضمير للاستمرار في خداع السيدة دي جو. ولكن مصارحتها بهذه المسألة قد تصيبها بنوبة قلبية.»

«أعلم ذلك، ولكنني حالياً لا أفكر إلاّ في...»

«كيف تنتقمين من راؤول وتلقينه درساً. أليس كذلك؟ ولكنني لاأنصحك بذلك. في كل حال فانه لن يكون عليك مواجهته لفترة ما. لقد عاد الى باريس وبصحبته دومينيك.»

«دومينيك بصحبته؟»

تذكرت في تلك اللحظة إشارة بول العابرة، بأن على راؤول دي جو أن يتزوج هو نفسه دومينيك ان كان راغباً في دمج العائلتين.

توالت الأيام، وليسا غارقة في العمل، وهي تشعر بأن في ذلك راحة لها من الامعان في التفكير فيما وصل اليه حالها. وكانت تقضي الكثير من وقت فراغها تعتني بالحديقة الصغيرة. ولكنها كانت تعمل فيها وحيدة بعد أن عادت آن ماري الى عملها في باريس.

وجدت ليسا، بمرور الأيام، ان علاقتها ببول تمضي بصورة

أسهل، خاصة وانه لم يبذل محاولات لاجبارها على نوع من علاقة الحب بينهما، فقد بدا راضياً بالصفقة التي أبرماها معاً. ولكنه مع ذلك لم يوافق على إنهاء هذه الصفقة كما كانت ليسا تأمل، الا بعد أن يتأكد من ابتعاد دومينيك عن طريقه.

وقد أتاح لها الدور الذي تلعبه كخطيبة لبول أن تتصرف في حرية سواء في المنزل أو في داخل الاصطبلات. سألته مرة في يأس وهما تريضان بالخيل:

«ولكن متى يكون ذلك؟»

«لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً ياعزيزتي، بقدر معرفتي براؤول.»

«هل أنت متأكد تماماً من أنه سيتزوجها؟»

«بالطبع. لاشيء يمكن أن يستحوذ على اهتمام راؤول أكثر من فونتين، فيما عدا شرف العائلة بطبيعة الحال.»

«ألا يعني الحب شيئاً بالنسبة إليه؟»

«لم يعد ذلك يعني شيئاً لراؤول منذ فيكتوار.»

قالت ليسا لنفسها في ألم: لابدّ أنه كان يحبها كثيراً. ثم ان هناك أيضاً ابنته فرانسواز. لكنها لم ترها كثيراً منذ اعلان خطبتها المزعومة. فهي عادة تقضي وقتها تحت رعاية الآنسة فيرود، تلك الفتاة الصارمة التي تنظر الى العالم من خلال نظارتها الطبية السميكة. كان من الأفضل للطفلة بالتأكيد أن تذهب الى المدرسة، فهي ستشعر هناك بسعادة أكثر من وجودها في عزلة داخل هذا القصر.

تجرأت مرة وأثارت هذا الموضوع مع الكونتيسة التي كانت تجلس في الشرفة منهمكة في التطريز. كانت ليسا طوال تلك الفترة قد أفلحت في تجنب اثارة أي حديث خاص مع الكونتيسة، وهي من جانبها لم تحاول أن تثير مثل هذه الأحاديث. كانت تعامل ليسا بود.

وكان يبدو عليها أنها راضية تماماً بأن تترك لعلاقتهما أن تنمو بطريقة عادية. كانت ليسا تتوقع منها التأنيب لاثارة موضوع فرانسواز، ولكن لدهشتها، كأنما انتهزت الكونتيسة الفرصة للحديث في هذا الموضوع، قالت وهي تتنهد:

«انك على حق ياعزيزتي، ولكن كيف السبيل الى اقناع راؤول؟ لقد وضع قواعد لتربية طفلته، يجب عليّ ألا أتدخل. على مايبدو. ولكن ذلك أمر صعب. ان المدرسات في المدرسة التي كانت تذهب اليها آن ماري وهي طفلة يبدين ترحيباً حاراً لاستقبال فرانسواز لديهم، ثم انها في حاجة الى اللهو مع أطفال في مثل سنها.»

تنهدت مرة أخرى واضافت:

«ثم انظري الى ملابسها. يالهي! يالبشاعة! ان أحداً لايقوم بانتقائها سوى الآنسة، انها كفء. ما في ذلك شك، ولكن ذوقها يفتقر الى الأناقة تماماً.»

كانت ليسا تتفق تماماً مع ماتقوله الكونتيسة. فلطالما لاحظت ذلك وودت لو أنها أخذت الطفلة من يدها وألبستها ثوباً بسيطاً، وأخذت تعدو معها في أنحاء الغابة التي تحيط بالقصر، وأن تشعر ولو لمرة واحدة أن ملابسها متسخة. كانت تود لو صحبتها للسباحة في البركة العميقة التي يمر فوقها جسر سانت دينيس حيث يلهو الأطفال ويقذفون بعضهم البعض بالمياه، ثم يجلسون على الصخور تحت أشعة الشمس. ان الآنسة فيرود، على ما يبدو، تتعلل غالباً بذلك الصداع في الأوقات المخصصة لنزهة الطفلة، وبذلك تحرمها من التعرض للشمس والهواء.

وجدت ليسا فرصتها في إحدى نوبات الصداع تلك. كانت فرانسواز جالسة عند نهاية سلم القصر، تبكي. احتضنت ليسا

جسدها الصغير وقالت:

«ما الأمر ياعزيزتي؟»

«لقد وعدتني الآنسة بالذهاب معي اليوم الى القرية، ولكنها الآن تقول انها مريضة جداً، وذهبت من فورها الى السرير. انها دائماً تفعل ذلك. إما أن الجو حار جداً، أو أن المشوار طويل جداً، أو أن درجة الحرارة تشعرها بالمرض.»

وأجهشت الطفلة من جديد بالبكاء. وأدركت ليسا أن الطفلة عانت مراراً من خيبة أمل مشابهة. هبت واقفة في رشاقة وهي تجذب فرانسواز معها. وقالت وهي تبتسم:

«حسناً، سوف أصطحبك أنا للنزهة في القرية كنوع من التغيير. ولكنني لا أريد أن أصطحب مثل هذا الوجه الذي تعلوه الدموع. هيا اذهبي واغسلي وجهك وسوف أراك هنا بعد عشر دقائق بعد أن أغيّر ملابسي.»

تهلل فجأة وجه فرانسواز الصغير الفاتن. وأسرعت في مرح تاركة ليسا تذهب الى غرفتها لترتدي ثوباً بسيطاً.

قالت في نفسها: انني أتصرف معها، في أية حال، كما يجب على زوجة العم أن تفعل ولكن الطفلة لم تكن في حاجة الى زوجة عم، كانت في حاجة الى حنان الأم. ربما كان راؤول دي جو يدرك ذلك، ويقوم في هذه اللحظة بتدبير ذلك الأمر. ولكن هل يمكن لدومينيك أن تنجح في هذه المهمة، تماماً كما هي مطالبة بأن تنجح في دورها كسيدة لهذا القصر وزوجة لصاحبه؟

قال بول ان الحب لايدخل عنصراً في زواج كهذا، ولكن، لايمكن للكونت أن يكتفي بزواج قائم فقط على المصلحة، ويخلو من أي نوع من العاطفة. كان من الصعب على ليسا أن تفهم تصرفات

دومينيك. ففي البداية، لم تكن تخفي أنها تريد بول، والآن، ودون مواربة أيضاً، تحولت باهتمامها الى راؤول. ولكن هل يرضى راؤول بأن يكون الرجل الثاني بالنسبة الى أية امرأة؟

أخذت فرانسواز تثرثر في مرح وهما في طريقهما الى سانت دينيس. وكانت ليسا سعيدة بتلك الثرثرة. فقد ساعد ذلك على ابعاد أفكارها عن أشياء لاترغب في مواجهتها، ولذلك فقد تجاوبت مع الطفلة في مرحها.

كان الجو شديد الحرارة. وأحست ليسا بألم في قدميها بسبب تسرب الأتربة الى داخل حذائها المكشوف. قالت لنفسها: ان ذلك ربما يفسر نوبات الصداع التي تنتاب الآنسة فيرود كلما جاء ذكر مثل هذه النزهات.

واكتشفت ليسا على الفور أن رغبة فرانسواز في الذهاب الى القرية، لم يكن لمجرد التريض، واكتشفت ليسا أن هناك محلاً لبيع الحلوى والمثلجات، وربما كان ذلك من أهم الأسباب التي تثير بهجتها بالذهاب الى القرية.

عند اقترابهما من الجسر، شاهدت ليسا أطفالاً يلعبون كالعادة، ولكن ما أدهشها كان رد فعل فرانسواز. فقد شعرت أن الفتاة تسير الى جانبها في صمت وهي تنظر الى الأرض، وأدركت أن فرانسواز تصاب بالخجل والحرج عندما يكون هناك أطفال آخرون. ولاحظت أيضاً أن الأطفال توقفوا عن اللعب وهم يراقبون فرانسواز في إستياء. بل انهم أخذوا يغرقون في الضحك في نوع من الاستهزاء عندما مرّت بهم فرانسواز، وتفوهت طفلة منهم بشيء من السخرية في صوت خفيض. سألت ليسا:

«هل تعرفين هذه الطفلة؟»

«انها ايفيت ابنة صاحب متجر الحلوى.»

سحبت الطفلة يدها من يد ليسا التي شعرت أن الطفلة أخذت في الانطواء على نفسها. ولكن لماذا؟ كانت تود لو عرفت الاجابة على هذا السؤال، ولكنها فضلت أن ترجىء الموضوع الى وقت آخر. فقد خلت خطوات الطفلة تماماً من أي نوع من البهجة، بل انها كانت على وشك البكاء.

«ها قد ظهرت المنازل أخيراً. ما أجمل الزهور التي تنمو حول هذه النوافذ. ماذا تحبين من أنواع الزهور؟»

«انني لا أعرف شيئاً عن كثير منها.»

«اذن فاتك الكثير من التعليم، خاصة وأن لك جدة كبيرة لها مثل هذه الحديقة الجميلة. ألا تذهبين اليها لتلعبي فيها؟»

«كلا. ان البستاني بيير يقول ان حدائق الزهور من اهتمامات الانكليز والمجانين. لأنها مجرد مضيعة للتربة التي يمكن أن تستخدم في زراعة الخضار.»

«ومع ذلك فهو يعتني بحديقة القصر.»

«بالطبع، والا ما استخدمه والدي.»

أخذا يتجولان في القرية من متجر الى آخر، وقد عادت الى فرانسواز حيويتها. كما لاحظت ليسا أن أهل القرية، على عكس أطفالها، يعاملون الطفلة في ود وحرارة.

توقفت ليسا عند إحدى المقاهي لتأخذ قسطاً من الراحة وشيئاً من المرطبات. أدركت ليسا أن صاحب المقهى يعاملها معاملة خاصة، وأن جميع من حولها يراقبونها جيداً. ربما كانت أنباء خطبتها المزعومة قد بلغتهم. وتأكدت ظنونها عندما قالت فرانسواز:

«الجميع يتساءلون عن موعد زواجك بعمي. فعندما يكون هناك زواج

في عائلتنا. يقام هنا في الميدان حفل راقص، ينتقل اليه المدعوون في القصر عند منتصف الليل ويشتركون في الرقص مع أهل القرية. لقد حدث ذلك عندما تزوج بابا من ماما. عمي بول قال لي ذلك، وكيف أن الجميع كانوا يشربون ويرقصون في سعادة. والآن جاء دورك يا آنسة.»

«اذا كان الأمر كذلك، ألا ترين أنه من الأفضل أن تناديني بشيء غير آنسة.»

«زوجة عمي.»

«أعتقد أن ذلك سابق لأوانه. ماذا لو أنك ناديتني باسمي؟»

«ليسا؟ ولكن الآنسة فيرود ستقول إن ذلك غير لائق.»

«مع احترامي الشديد لها، أعتقد أنه من الأفضل أن نترك للآنسة آراءها في هذا الشأن. هل اتفقنا اذن؟»

«بالتأكيد ياليسا.»

ابتسمت في شقاوة وهي تقول ذلك، مما زادها جمالاً.

كان اهتمامها كله منصباً على الحديث مع فرانسواز التي كانت تقدم لها شخصيات القرية وهم يمرون بها، ولذلك لم تلحظ على الاطلاق السيارة السبور وهي تتجه نحوها، الا عندما هبت فرانسواز واقفة وقالت وهي تلوح بيدها:

«يا، بابا، نحن هنا!»

هبط قلب ليسا بين ضلوعها وهي ترى ملامحه السمراء الجذابة وهو جالس خلف عجلة القيادة. ولكنه لم يكن وحيداً. كانت دومينيك تجلس الى جواره.

نزل راؤول من السيارة ببطء، وجرت اليه فرانسواز، ولكن ليسا لاحظت أنه انتزع نفسه في رفق من بين يدي الطفلة التي

كانت تحاول احتضانه في سعادة.

«وهكذا وجدت لك صحبة جديدة.»

لم يكن يبدو عليه الضيق، بل على العكس، كانت على وجهه ابتسامة صغيرة. أحست ليسا بالتوتر، وانسكب كوب المثلجات على ملابسها وهي تحاول الوقوف، وزادها ذلك اضطراباً. وحاولت فتح حقيبة يدها لتخرج منديلا، ولكن قبل أن تتمكن من العثور عليه قدم لها منديله. قامت بتنظيف ملابسها وهي في أشد حالات الاضطراب. تحسس ملابسها وقال:

«هل يمكن غسله؟»

«بسهولة.»

«لقد أرحتني، فلم أكن لأرغب في إفساد المزيد من ملابسك.»

جاء من السيارة صوت دومينيك الآمر:

«هل سأنتظر هنا طويلاً؟»

تقدم راؤول من السيارة وفتح لها الباب:

«كلا بالتأكيد ياعزيزتي. سنأخذ جميعاً شيئاً من المثلجات ثم أعيد فرانسواز والآنسة فيرفاكس الى القصر.»

«ومن الذي كان سيقوم بتلك المهمة لو أننا لم نصل؟»

ألقت دومينيك نظرة خاطفة على ثياب ليسا المتسخة، ثم تجاهلت وجودها تماماً. وتحولت الى فرانسواز في نشاط وهي تطلق فيضاناً سريعاً من الأسئلة التي كانت ليسا على ثقة من أنها لاتتعلق الا بالدروس والآنسة فيرود. كانت فرانسواز تجيب على تلك الأسئلة في أدب. ولكن كان من السهل على ليسا أن تلاحظ أنها تجيب بلا حماس، حتى أنها تثاءبت ودومينيك مستمرة في إلقاء أسئلتها حول مدى تقدمها في دروس الحساب.

لم تكن ليسا راغبة في تناول كوب آخر من عصير الليمون، ولكنها لم تكن تعرف كيف ترفضها أو ترفض مصاحبتهم الى القصر دون أن يبدو في ذلك شيء من الفظاظة. ولم تكن بداية الجلسة موفقة في أية حال، فقد أدركت أنها بدون وعي منها كانت على وشك أن تضع منديل راؤول دي جو في حقيبتها، ولكنه مد يده وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى ليأخذه منها. كانت تلك الابتسامة السبب في اتخاذ قرارها. ستعود الى القصر سيراً على الأقدام، حتى لو كان في ذلك آخر ساعة في حياتها! انها لاتريد أي معروف منه هو بالذات، هو الذي يعتقد أنها ستذوب شوقاً عند أقل نظرة منه.

جلست ليسا تحدق في الكنيسة المقامة عند الطرف الآخر من الطريق، حتى لاتضطر للمشاركة بالحديث في تلك الجلسة. قال راؤول الذي كان يراقبها:

«تعطين الانطباع بأنك تحفظين كل حجر في الكنيسة. لا بد أنك تحلمين الآن بذلك اليوم الذي تقفين فيه أمام هيكلها كعروس ليول.»

«بدون شك.»

قال لها هامساً بحيث لا يصل صوته الى الآخرين:

«من الأفضل لك ألا تثقي كثيراً بالأحلام.»

«هل تهددني ياسيدي الكونت؟»

«على العكس، اعتبري الأمر تحذيراً من صديق.»

«حقاً؟ ولكنني ياسيدي أعتقد أن الصداقة بيننا أمر مستحيل.»

«قد تكونين على حق.»

«يسرني اننا اتفقنا على شيء أخيراً. وهكذا، أرجو أن تتفق معي أيضاً على أنه يجب عليك التوقف عن التدخل طوال الوقت في علاقتي مع

بول»

«يؤسفني أن تكون تلك هي نظرتـك الى اهتمامي بتلك العلاقة الصغيرة بينك وبين بول.»

«وأنا يؤسفني أيضاً. ان تعيش متخلفاً عن هذا العصر مئات السنين. فأصحاب الأفكار اللذين من نوعك اندثروا مع الثورة الفرنسية. أو كان يجب أن يندثروا. ولتعلم شيئاً أكيداً. لا أنا ولا بول سنخضع لضغوطك علينا. انّ لنا الحرية في التصرف في حياتنا كيفما نشاء. والآن انني أفضل العودة الى القصر بطريقتي الخاصة.»

«لحسن الحظ لن تكون هناك ضرورة لذلك.»

التفتت لترى من هذا القادم الذي رفع اليه يده بتحية عابرة. لقد كان بول قادماً على الممر تجاههم.

«جئت في الوقت المناسب تماماً. كانت خطيبتك تدافع عنك دفاعاً شرساً وكأنها نمرة تدافع عن صغارها.»

«أوه، لقد تركت في القصر نمرة غاضبة أخرى. ألم يكن من الأفضل ياليسا أن تبلغي الآنسة فيرود بأنك ستصطحبين فرانسواز الى هنا؟ انها الآن مقتنعة تماماً بأن الطفلة خطفت على أقل تقدير. ولحسن الحظ أن السيدة باريت شاهدتكما وأنتما تغادران القصر، وتمكنت من تهدئتها قبل أن تثير قلق ماما.»

«أوه. لقد اعتقدت أن فرانسواز أخبرتها.»

نظرت الى الطفلة التي كانت تجلس والشعور بالذنب يملؤها. قال راؤول دي جو:

«بالتأكيد لم تفعل. فهي كانت تشك في حصولها على مثل هذه الموافقة. ولذلك قررت أن تتخطى الآنسة فيرود تماماً. تعالي يافرانسواز. سوف نبحث هذا الأمر، وقيامك بالاعتذار للآنسة في السيارة. بول،

هل تقوم أنت باصطحاب الآنسة فيرفاكس؟»

كانت ليسا تحس بالضيق والحرج. فهي لم تكن تتوقع أن تتحول رغبتها في منح الطفلة شيئاً من السعادة الى هذه الأزمة. لقد بدت الآن كانسانة تتدخل فيما لا يعنيها، وتتصرف بدون تقدير. نظر اليها بول وهما في السيارة وقال وقد بدا عليه القلق:

«هل أنت بخير ياليسا؟»

«أعتقد ذلك. ولكنني لم أكن أعلم أنه ينبغي على فرانسواز ألا تغادر القصر بدون اذن.»

«لم يكن ذلك مهماً فيما مضى، ليس هناك ضير طالما هي معك. ولكنها ابنة رجل ثري، وقد تتعرض لخطر.»

ثم نظر اليها في حب استطلاع وقال:

«ماذا كنت تقولين لراؤول؟ ماذا كان يعني بقوله انك كنت تدافعين عني؟»

«لاتلقي بالاً الى ذلك. كل مافي الأمر انه غير مرتاح لخطبتنا المزعومة.»

قال بول عندما تمكنت سيارة راؤول من تخطيهما في الطريق عبر التل:

«لم يكن راؤول من قبل يمضي مثل هذا الوقت في القصر. أود أن أعرف السبب في ذلك.»

نظر الى ليسا وقال:

«هل أنت عند وعدك ياعزيزتي؟ ألن تدعيه يعلم أن خطبتنا مزعومة الى أن تصبح دومينيك خطيبته؟»

«كلا، لن أبلغه.»

٧ ـ اهلاً بك في جحيمي

كان العشاء الليلة الماضية حافلاً بالتوتر. حتى دومينيك لم تحاول أن تحتكر الحديث كعادتها، واقتصرت على الحديث بصوت خفيض مع راؤول دي جو.

أما بول، فيبدو أنه قرر أن الوقت قد حان لأن يقوم بدور الخطيب المحب معها، الأمر الذي أثار غضبها. فقد أجبرها على أن تجاريه، وأن تخفي توترها المتصاعد، خاصة إزاء السيدة دي جو، التي كانت تبدو سعيدة بأن ابنها الأصغر بدأ يسير أخيراً على تقاليد العائلة.

ولو أن ليسا كانت تحب بول حقيقة، لكان ذلك الاهتمام الذي أسبغه عليها طوال العشاء، ذروة أكثر أحلامها خيالاً. ولكن الذي حدث، أن الطريقة التي مال بها عليها، ووجهه يكاد يلمس شعرها وهو يملأها كأساً، أو ملامسة يده ليدها وهو يشعل لها سيكارة، كل ذلك كاد يصيبها بالاختناق فعلاً. كذلك عندما جلس الى جانبها على الأريكة الكبيرة في غرفة الاستقبال، ملتصقاً بها بشدة، لم تجرؤ هي حتى على دفعه بعيداً عنها.

ويبدو أن ماغي كانت هي الشخص الوحيد الملم بتفاصيل مايدور، في هذا الجمع الذي لم يكن مدركاً لما يجري تحت السطح من

توتر. إلا أن ماغي استأذنت فور تناول العشاء لتغرق نفسها في أوراق دي جو. كان انشغالها كبيراً، وخاصة مذكرات الكونت دي جو الى الحد الذي جعل ليسا تقرر ألا تشغلها في هذا الوقت بالذات بشكوكها ومشاكلها الشخصية. كانت تدرك أن أمها الروحية وصلت الى مرحلة معينة من عملية العمل الأدبي، تتسم بحساسية شديدة، تحب ألا يقلقها أحد. هذا بالاضافة الى إدراك ليسا أن ردّ فعل ماغي لن يكون سوى إلقاء اللوم عليها بأنها هي التي جلبت لنفسها كل هذه المشاكل. وشعرت ليسا أن ذلك صحيح الى حد ما، لكنها كانت تقنع نفسها بأنها أرغمت على ذلك الموقف الشائك، بسبب التصرفات الشريرة الشائنة لراؤول دي جو، الذي يعتقد أن من حقه التلاعب بمصائر كل من يقترب منه.

جلست ليسا على سريرها وهي تئن. تذكرت أنها حددت موعداً لبول للقيام كعادتها بنزهة الصباح على ظهور الخيل، وأن هذا الموعد قد اقترب. هذه الجولة ستفيدها في الهرب قليلاً من الجو الكئيب الذي يسود القصر. كما أنها ستنتهز الفرصة لوضع قيود مشددة على تصرفات بول معها في المستقبل خلال فترة وجودها في فرنسا.

أخذت حماماً سريعاً، وارتدت على عجل ملابس بسيطة لركوب الخيل، وأخذت طريقها الى أسفل عبر الجزء من القصر الذي يضم المطابخ، مثلما فعلت في أول يوم جاءت فيه.

يالخيبة الأمل، وهكذا أصبح ذلك الحديث الخاص مع بول أمراً مستحيلاً، على مايبدو. فان بول نفسه، الذي كان يعلو وجهه تعبير عاصف، كان يقف الى جوار أحد كبائن الخيول، وهو يراقب راؤول يساعد دومينيك على ركوب صهوة فيريتي، تلك المهرة الصغيرة التي اعتادت ليسا ركوبها أثناء جولاتها. ووقف عامل

الاصطبلات ممسكاً بلجام الجواد ميسترال للكونت، ولاحظت ليسا أن أتلانتي، وهي مهرة صغيرة لم تعتد ركوبها من قبل قد أعدت بالسرج لها.

فكرت لحظة في التراجع، والعودة الى القصر بدون أن يلحظها أحد ثم تعتذر بعد ذلك بأنها لم تكن على مايرام، ولكن بول لمحها وتقدم اليها عبر الفناء قائلاً بصوت مرتفع:

«ها أنت ياعزيزتي. أعتقد أنك لاتمانعين في أن تكوني لنا صحبة؟»

شعرت ليسا بالحرج خاصة بعد ان لمحت ابتسامة ساخرة على وجه الكونت. قالت في حدة:

«ليس لي أنا أن أمانع أم لا، فهي في كل حال خيول أخيك، وله الحق في امتطائها وقتما يشاء»

قالت دومينيك التي كانت ترتدي ثياباً غاية في الأناقة لركوب الخيل:

«أي طريق سنسلك ياراؤول؟»

«طريق النهر، انه الطريق الذي اعتدنا على التريض فيه، أليس كذلك يابول؟»

اشتعلت في ليسا رغبة التحدي. انها لم ترغب في هذه الصحبة فلتترك على الأقل لاختيار طريقها للتريض. صاح بها بول في نفاد صبر:

«هيا ياليسا، أسرعي»

«سوف ألحق بكم بعد أن أعد الجواد»

ابتسمت لنفسها وهي ترى بول يتقدم وخلفه مباشرة الكونت و دومينيك يخرجان من ساحة الاصطبل.

انتظرت الى أن ابتعد صوت أرجل الخيل، وسارت بجوادها الى

الخارج، كان هناك طريق ترابي ضيق محاذ للقصر، وسارت فيه برغم ما بدا على جوادها من توتر لعدم مصاحبة الخيول الأخرى.

شعرت بأنها عادت الى طفولتها من جديد وهي تتجول بين أشجار الغابات المحيطة بها. وتساءلت في خبث عما اذا كان الآخرون قد لاحظوا غيابها الآن. ومن سيكون أكثرهم غضباً، راؤول ودومينيك اللذين يرغبان في أن يكونا بمفردهما، أم بول الذي سيجد نفسه ربما لأول مرة في حياته الشخص الثالث في صحبة لاتضم سوى شخصين.

في هذه الأثناء، بدا الطريق مغطى بالعشب، ولكنها أقنعت جوادها بالعدو خلاله. شاهدت ليسا مجرى مائياً وأدركت أنها هي أيضاً تسير في طريق النهر وان كان في موضع يعلو كثيراً عن الآخرين.

توقفت عن العدو بجوادها، وسارت على مهل وهي تحاول إعادة لجام الجواد الى وضعه الطبيعي. في ذلك الوقت فقط سمعت أصوات وقع خطوات ميسترال التي لاتخطئها تأتي من الطريق نفسه الذي جاءت منه لتوها. صاحت في خيبة أمل! أوه، كلا. اعتقدت أن بول بعد أن شعر بغيابها أتى للبحث عنها، مثلما يفعل أي خطيب في مثل هذا الموقف. أوقفت جوادها عند أحد المنحنيات لتنتظره.

ولكن الذي ظهر على البعد لم يكن بول، ولم يكن ثمة شك في أن القادم على الجواد ليس سوى راؤول دي جو الذي بدا على ظهر جواده رمزاً للرشاقة وقوة العضلات.

أصيبت ليسا بالذعر. ما من شيء في الوجود يجبرها على أن تصبح على انفراد معه مرة أخرى. لكزت جوادها لكزة عنيفة جعلت الجواد يعدو على غير هدى.

نادى عليها بصوت لايمكن اغفال نبرة التهديد فيه. صاحت بدورها وهي تحث جوادها على العدو بصورة أسرع:

«فلتذهب الى الجحيم»

تدفق العرق من جبينها ونزل الى عينيها، هزت رأسها في صبر نافذ وهي لاتجرؤ على التوقف لتجفيف عرقها. لقد قررت القرار، فان كل همها أن تفوز، أن تبتعد عنه بصورة كافية حتى يمكنها الاختفاء بين الأشجار، وهي تأمل أن يحل في النهاية التعب. براؤول ويتوقف عن البحث عنها.

شاهدت أمامها انحناءة حادة على الطريق، وأدركت وقد بلغ بها التعب أشده وأخذت تتنفس بصعوبة، أنها بمجرد أن تدور حولها، فانها ستختفي عن الأعين للحظات ثمينة.

وما أن بلغت تلك الانحناءة، حتى فوجئت بعد فوات الأوان بوجود شلال من المياه يسقط عند أرض صخرية منحدرة. اطلقت صرخة حادة، وصهل الجواد مهتاجاً. ولم تدر الا وهي تسقط فوق الصخور والمياه تحيط بها من كل جانب.

لم تشعر بينما تفتح عينيها، إلاّ والعالم يدور في رأسها المتصدع، وحدقت فيما حولها في حيرة، وهي لا تعي إلاّ بالآلام والكدمات في جانبيها، وبأن ملابسها مبتلة ويغطيها الوحل. شعرت أيضاً بتقرحات مؤلمة في وجهها واكتشفت عندما رفعت يدها لتتحسسه أنه هو الآخر يعلوه الطين. في الوقت الذي بدأت دموع الألم والرثاء لنفسها تتجمع في مقلتيها، كان راؤول دي جو يتسلق حافة الجدول وهو يمسك في يده منديلا مبللا بالماء.

أغمضت عينيها على الفور، وتظاهرت بأنها مازالت غائبة عن الوعي. لم تكن على استعداد بدني أو عاطفي لمواجهة معه. كانت تشعر به واقفاً أمامها. ثم راكعاً على ركبتيه الى جانبها. كانت تحس بدفء جسمه وهو ينحني عليها، وبرائحة عطره تنفذ الى أنفها.

أطلق تنهيدة، وشعرت بالتوتر بدون وعي منها، وهي تدرك أنها بتصرفها الأحمق، وضعت نفسها تحت رحمته مرة أخرى. تمتم قائلاً:

«هيا ياجميلتي النائمة، حان وقت الاستيقاظ»

وشعرت، أن تنفسها يزداد سرعة، وشوقها الى ذراعيه يتكاثر وبدلا من ذلك انسابت المياه على وجهها عندما أخذت يده في عصر منديله

هبت ليسا جالسة وهي تنثر المياه عنها في غضب:

«أيها المتوحش! لقد أوشكت أن تغرقني.»

«استعدت وعيك بمعجزة يا آنسة. لقد كنت بالفعل على وشك الغرق، ولكن ليس بسببي.»

أخرجت ليسا منديلها من جيبها وحاولت تجفيف وجهها، كانت هناك نبرة صدق في صوته، وحدقت فيه قائلة:

«هل سقطت بالفعل... هناك؟»

«تقريباً. ولحسن الحظ أن بعض الأغصان أوقفت انحدارك الى أسفل، واستطعت أن أسحبك في الوقت المناسب قبل أن تسقط بك الأغصان. والآن، هل لك أن تشرحي لي السبب في ذلك السباق الذي كنت تخوضينه، ولماذا وجدت أنه من الضروري المخاطرة بحياتك وحياة هذا الحيوان الثمين الذي لاتمتلكينه.»

«أوه، انه أتلانتي.»

نظرت حولها في شغف، وشعرت بالارتياح لرؤيتها الجواد سالماً وقد ربط وثاقه الى شجرة مجاورة بجانب ميسترال يأكلان العشب في هدوء. قال وهو يقلدها في وحشية وومضة الغضب بادية على وجهه:

«أوه الجواد! كيف جرؤت على تلك الفعلة! لقد سمعتني وأنا أصيح بك. كنت أحاول تحذيرك. اننا جميعاً نعرف خطورة هذا الطريق. وأنت لاتعرفين عنه شيئاً. ومع ذلك فقد سرت فيه وكأن شياطين العالم كله

تطاردك.»

«ربما كنت أعتقد ذلك.»

رأت في نظرته اليها، كل الغرور الذي ورثه من أجداده في العهد القديم حيث كان في مقدورهم أن ينالوا كل مايرغبون فيه. عندما توجه اليهم اهانة كتلك من امرأة.

«أنت تعتبرينني شيطاناً. اذن أهلاً بك في جحيمي.»

جذبها اليه في قوة، حاولت مقاومته، أمسك بيديها ووضعهما خلف ظهرها ودفعها فوق العشب. أطلقت صرخة بسبب شعورها بالألم من ناحية، وكنـوع من الاحتجـاج على اصراره على تقبيلها من ناحية أخرى. كان يبدو وكأنه يرغب في تلقينها درساً لن تنساه مدى الحياة.

كلما اقترب جسمه منها، كانت ليسا تشعر بمقاومتها تتهاوى تحت وطأة الرغبة. أحست بجسمه يصيبها بشيء أشبه بالصدمة الكهربائية. أطلق يديها وكأنه يؤكد لها استسلامها الكامل له. أفاقت فجأة من استسلامها على تلك الابتسامة التي بدت على وجهه. لقد رأت من قبل تلك الابتسامة وما تنطوي عليه من شعور بالانتصار.

هذا هو كل مايعنيه، تحقيق انتصار صغير في تلك الحرب التي يخوضها مع بول. دفعته بكلتا يديها، وأسرعت بالتقلب على العشب بعيداً عنه برغم ماتشعر به من آلام. يجب ألا تدعه يدرك الى أي مدى كانت على وشك أن تصبح ملك يديه تماماً. قالت من بين دموعها التي جاهدت نفسها ألا تذوقها:

«أعتقد أنك تماديت كثيراً ياسيدي. أليس كذلك؟ لم أعلم أنك مازلت تفكر في حق السيد في عصر كعصرنا هذا!»

هبت واقفة على قدميها وهي تزيح الطين والعشب من فوق ملابسها في محاولة لاخفاء إرتعاش يديها. أحست بنبضها يهدأ، وأجتاحها

شعور بالغثيان. حدقت في الأرض انتظاراً لتوقف هذا الاحساس. وقف راؤول دي جو، ولكنه لم يحاول الاقتراب. رفعت اليه عينيها لتقابلها نظرة الاحتقار في عينيه مثل اللطمة. قال في صوت مثل السياط:

«انك مخطئة يا آنسة. ان حق السيد يحتفظ به فقط للعذارى، في ليلة زفافهن.»

كانت على وشك أن تتقدم لتوجه له صفعة، إلا أن الشعور بالغثيان عاودها من جديد. خطت خطوتين الى الأمام، ثم غابت عن الوعي تحت قدميه تماماً.

أفاقت ليسا على صوت ماغي تقول:

«حسناً.»

كان الطبيب يفحصها منذ لحظات، وقام بالعناية بالاصابات والكدمات وأعطاها بعض المهدئات وقال انها تعاني من صدمة عصبية حادة.

ومع ذلك أدركت ليسا أن ماغي لن يمنعها شيء من استجوابها، سواء كانت تعاني من صدمة عصبية أم لا.

«كان لي حديث اليوم مع الكونتيسة. انها تتحدث عن خطبتك لبول وتتساءل عن الموعد المناسب لاقامة حفل بهذه المناسبة.»

«أوه، كلا!»

«ان ذلك بالفعل ماحدث. ولك أن تتصوري شعوري حينئذ. لقد تعللت بأن لدينا عملاً كثيراً نقوم به، وأبديت أعذاراً أخرى مختلفة. كما أنني قلت لها انني أشعر بأن الأمور لاتبدو مستقيمة في علاقتك ببول. وأي إعلان رسمي لخطبتكما سيكون أمراً سابقاً لأوانه.»

«وماذا كان ردها؟»

«أبدت أسفها الشديد. ويبدو أنها بدأت ترتاح لفكرة أن تكوني زوجة لابنها.»

بكت ليسا، وجلست ماغي الى جانبها على حافة الفراش وأمسكت بيدها قائلة:

«البكاء لن يفيد. والآن، أريد تفسيراً لما حدث هذا الصباح. لقد دخل علينا راؤول دي جو وهو يحملك بين ذراعيه. لقد ظننت أنك فقدت حياتك على الأقل.»

«ليتني مت حقيقة.»

«كلام فارغ. ولكنني جادة ياعزيزتي، ما الذي جعلك تخوضين تلك المخاطرة البغيضة؟ ماذا كنت أقول لوالديك لو أن مكروهاً حدث لك؟»

«لم أكن أدري أن هناك مخاطرة.»

«أليست مخاطرة أن تتحدي الكونت في سباق على أرض لاتعرفينها؟ كنت أظن أنكما أعقل من ذلك، وأن لديه شعوراً بالمسؤولية أكثر من ذلك.»

رفعت ليسا يدها لتتحسس الصداع العنيف في رأسها. ما هذا الذي تقوله ماغي، أن يلقي راؤول دي جو على نفسه بمسؤولية ما حدث؟ انها لاتستطيع تصديق أنه يفعل ذلك، بعد تجربتها في معاملته لها.

واصلت ماغي حديثها قائلة:

«لقد عنفته الكونتيسة على ذلك. انني لم أرها في مثل هذا الاضطراب من قبل. وبعد ذلك عاد بول ودوميتياك المخيفة ليسألا عما حدث. عندئذ انسحبت أنا في هدوء.»

انحنت ماغي واقتربت كثيراً من ليسا وقالت:

«هل تشعرين بالاضطراب ياطفلتي؟ تبدين شاحبة للغاية. هل أسدل لك الستائر لتنامي قليلاً؟»

وافقت ليسا في وهن. وفي الواقع لم تكن تشعر بأية رغبة في النوم، ولكنها شعرت بحاجة مفاجئة للاختلاء بنفسها.

عندما غادرت ماغي الغرفة، تركت ليسا لدموعها العنان. انها تسترجع في خجل كل لحظة مرت عليها مع راؤول في الغابة. كيف ترغب فيه الى هذا الحد، في الوقت الذي يبدو احتقاره لها واضحاً؟ ألا تدخل الكرامة أبداً في علاقتها به؟ كادت تذوب شوقاً بين يديه. ندت عنها صرخة ألم عالية وهي تضغط على منديلها بين أسنانها.

بذلت جهداً لتجمع أفكارها. قبل كل شيء يجب أن تعترف بأن راؤول يثير رغبتها بطريقة لم تحدث مع أي رجل آخر. وثانياً، يجب انهاء خطبتها الصورية ببول. فلم تكن لتشعر الذنب إزاء محاولات الحب من جانب راؤول لو لم تكن خطيبة بول. ولا عجب أيضاً أن يحتقرها راؤول لهذا السبب. انها لم تعطه أي سبب يجعله يشعر نحوها بالاحترام، حتى في أول لقاء لها. ان الحقيقة المرة هي أنها لا تقوى على السيطرة على نفسها طالما كان بالقرب منها. ولم يكن ذلك ليحدث مع بول، الذي كانت تعتقد أنها تحبه، ولذلك كان دائماً مايتهمها بالبرود.

وأخيراً، يجب عليها أن تفر من هذا القصر في أسرع وقت ممكن، وبصورة تحفظ فيها ماء وجهها. فالكتاب الذي تعمل فيه ماغي قارب على الانتهاء، مما يسمح بالعودة الى لندن. خاصة وأن ليسا تشعر أنه ليس من الصعب اقناع ماغي التي تعلم الآن حقيقة الموقف.

تناولت ليسا أحد الأقراص التي وصفها الطبيب، رغبة في أخذ

قسط من النوم فلربما تمكنت من التفكير في هدوء في مخرج من تلك الفوضى التي جلبتها لنفسها.

ولكنه كان نوماً متقطعاً، تخللته أحلام غريبة ومشوشة في أحد هذه الأحلام، كان راؤول يقف الى جوار سريرها، وهي تمد اليه يدها في يأس، تناشده بدون كلام أن يريحها بلمسة من أصابعه. ولكنه يتراجع الى الوراء بقامته الفارعة، كلما زادت حاجتها اليه. وبرغم تلك الأحلام فقد شعرت بالانتعاش قليلاً عندما استيقظت من نومها.

سمعت طرقاً على الباب، وأذنت للطارق بالدخول اعتقاداً منها بأن الطارق ربما كان السيدة باريت أو واحدة من الخدم. ولكن كان وجه فرانسواز الصغير هو الذي أطل عليها من فتحة الباب. جلست على الفور مرحبة بها. تقدمت منها فرانسواز ببطء وتردد، وعلى شفتيها ابتسامة خجلة وهي تحمل كتاباً. قالت الفتاة في قلق:

«هل أيقظتك؟»

«على الاطلاق. بل يسعدني أن أستقبل الزائرين. انه كتاب لطيف. هل أعطاك والدك اياه؟»

«كلا، بل أحضرته لي عمتي آن ماري من باريس في آخر زيارة لها هنا. جدتي تقول لي دائماً ان مشاغل والدي تمنعه من الاهتمام بشراء أشياء للفتيات الصغيرات.»

قالت ليسا في نفسها: أي أب له طفلة وحيدة يتيمة مثل فرانسواز يجب أن يكرس لها جزءاً من وقته. ان هناك خطأ جسيماً في علاقة فرانسواز بأبيها. راؤول ليس بالرجل المتحجر العاطفة، لذن لماذا يتسم تصرفه تجاه ابنته الوحيدة بهذا البرود؟ قالت في بشاشة قابلتها الطفلة بابتسامة كاشراق الشمس بعد المطر وهي تعدو نحو سريرها وتتكور الى جانبها:

«هيا يافرانسواز اقرأي لي في هذا الكتاب.»

كان كتاباً يضم بعض القصص الخيالية المصورة للصغار وحكاية سندريللا هي قصة فرانسواز المفضلة. عندما انتهت من قراءتها، بدأت ليسا تحكي لها عن أيام طفولتها في المدرسة وكيف أنهم قاموا بتمثيل حكاية سندريللا في أحد أعياد رأس السنة. سألتها فرانسواز:

«وهل قمت أنت بدور سندريللا؟»

«كلا، كنت أؤدي دور إحدى الشقيقات القبيحات.»

«ولكنك لست بقبيحة»

«أشكرك على هذه الثقة.»

توقفت ليسا عندما سمعت طرقاً آخر على الباب. وبدأت أعصاب ليسا في التوتر وهي ترى راؤول دي جو يدخل الى الغرفة. أدركت ليسا على الفور أنه لاينظر اليها، بل الى الطفلة الجالسة الى جوارها.

قال في برود:

«ماذا تفعلين هنا يافرانسواز؟ أليس هذا وقت وجودك مع الآنسة فيرود؟»

قالت الطفلة وهي تقلب شفتيها في تمرد:

«انني لا أحب أن أكون معها. فهي دائماً غاضبة، ودائماً تشكو، أود أن أظل هنا مع ليسا.»

«الآنسة فيرود هي معلمتك، وهذا الوقت من النهار مخصص لدروسك. هيا اذهبي فوراً. كما أن صحة الآنسة فيرفاكس ليست على مايرام ويجب أن تستريح، وأنت لاتتيحين لها تلك الراحة.»

همت ليسا بنفي ذلك، ولكن فرانسواز سبقتها الى الحديث:

«لاأحب أن تكون لي معلمة خاصة. عندما كانت ليسا صغيرة كانت تذهب الى المدرسة حيث كان لها أصدقاء تلعب معهم. أما أنا فليس لي أي أصدقاء.»

وبدأت الطفلة في البكاء.

أشار والدها في حركة آمرة الى الباب وقال:

«اذهبي.»

ذهبت فرانسواز، وهي تجر قدميها. كانت تبدو يائسة للغاية. راقبتها ليسا وهي تذهب، وتحولت الى راؤول في رجاء:

«أرجوك لاتغضب منها. أعتقد أنها كانت غلطتي أنا. أن أحدثها عن أيامي في المدرسة. كنت سعيدة في المدرسة، وكما ترى، فمن الواضح أنها غير سعيدة.»

«كانت تشعر بالرضى من قبل.»

قالت ليسا لنفسها بغضب انه يعني قبل أن تراني، ثم تحولت اليه قائلة:

«ولكن ذلك ليس كافياً ياراؤول. أن تشعر طفلة في مثل سنها بمجرد الرضى. بل يجب أن تكون مفعمة بالسعادة، وان يكون كل يوم مغامرة بالنسبة إليها. ولكن أنظر اليها!»

«ولكنني أنظر اليها بالفعل.»

«وماذا ترى؟ انها مجرد امتداد لشعورك بالكبرياء، والتقاليد العائلة. انها مجرد طفلة تعيش، وتتنفس. طفلتك أنت ياراؤول والتي يبدو، لسبب مجهول أنك لاتحبها.»

كانت تتحدث اليه في رجاء، ولكنها كانت تدرك أنها تجاوزت حدودها، وبدأت تنتظر وقوع الصواعق عليها، ولكنه عندما تحدث كان صوته بارداً برود الثلج:

«اسمحي لي أن أذكرك يا آنسة، بان وضعك في هذه الأسرة لايعطيك حق التدخل في شؤوني، وخاصة في علاقاتي الخاصة.»

قالت ليسا في ألم:

«انني آسفة.»

ولكنه كان قد توجه بقامته الطويلة نحو الباب ولم تصدر منه أية اشارة الى أنه قد سمع اعتذارها.

عندما أصبحت وحيدة في غرفتها، كاد يغلبها الشعور بالبكاء. ولئن كانت تعترف بخطئها في الحديث الى راؤول عن مثل هذه الأمور، إلا أنها لم تستطع كبح الشعورَ بالغضب الذي يتملكها عندما ترى معاملته الجافة لابنته. ربما كانت تلك المعاملة ترجع الى شعوره بالحزن ازاء رحيل زوجته المفاجيء. ربما فرانسواز تذكره بحياته معها. شيء واحد هي على ثقة منه، وهو انها لن تسمح لراؤول أن يؤثر على موقفها من فرانسواز، التي وجدت أنها في حاجة ملحة للاهتمام والعطف. فقد بدا لها أن الطفلة متعطشة للحب، الذي لايروي ظمأها له تلك اللحظات القليلة التي تقضيها مع جدتها. وصممت ليسا على أن تهتم هي بها طالما أن أحداً آخر لايفعل ذلك، وان كانت تدرك ان ذلك لن يكون إلا بصفة مؤقتة خلال وجودها في فرنسا.

وشعرت ليسا أن أهم شيء تفعله على الفور، هو أن تؤكد لفرانسواز أن طرد والدها لها من الغرفة لايؤثر على علاقتها في كثير أو قليل. وتنفيذاً لذلك القرار، توجهت عصر ذلك اليوم، الى غرفة الدراسة لتتحدث مع الآنسة فيرود.

واول شيء لاحظته من فورها أنه برغم دفء الجو، فان نوافذ الغرفة كانت مغلقة. كانت الآنسة فيرود تجلس على طرف طاولة صغيرة منشغلة في قراءة كتاب، أما فرانسواز فتجلس في مواجهتها وبين يديها

قطعة من أشغال الابرة.

دخلت ليسا الغرفة وعلى شفتيها ابتسامة، قالت انها في طريقها الى الحديقة الصغيرة لاقتلاع بعض الحشائش وأنه يسعدها أن تكون معها فرانسواز لمد يد المساعدة. وقالت تأييداً لموقفها بعد أن لاحظت أن الآنسة قطبت قليلاً:

«سيكون ذلك درساً مفيداً لها في علم النبات.»

«اذن لابأس، ولكن أرجو منك ياآنسة ألا يكون في ذلك إرهاق للطفلة أو تعريضها لضربة شمس.»

ألقت فرانسواز تطريزها جانباً وهبت واقفة، وأخذتها ليسا الى خارج الغرفة وقد تشابكت يداهما.

أمضت ليسا نحو نصف الساعة وهي تشرح لفرانسواز، التي كانت في البداية تقتلع كل مايصادفها من حشائش، الفرق بين النباتات النافعة والحشائش الضارة. كانت الطفلة سريعة التعلم والالتقاط، وسرعان ماأزالتا كل الحشائش الضارة من أحد أركان الحديقة.

جلست ليسا القرفصاء، وألقت نظرة على ما أنجزتاه من عمل، وقالت:

«عمل لابأس به على الاطلاق.»

قالت فرانسواز في مرح:

«لقد أصبحت خبيرة في أمور الحدائق. أليس كذلك؟»

التقطت ليسا قبضة صغيرة من الحشائش وألقتها نحو فرانسواز وهي تلهو. وعلى الفور، ردت فرانسواز بالقاء قبضة أخرى من الحشائش وضربت بها ليسا في كتفها. التفتت اليها ليسا، ورأت في عينيها نظرة رعب وانتظار لرد فعل ليسا إزاء أول بادرة لها للهو المنطلق بدون قيود. شعرت ليسا تجاهها بالاشفاق، قامت نحوها وهي تشمر عن ساعديها، وقالت لها مداعبة:

«هكذا اذن! لن تفلتي من يدي.»

هبت فرانسواز واقفة وأخذت تعدو هرباً، وليسا وراءها تعقبها، في ممرات الحديقة، تقفزان في مرح الى الأمام والى الوراء حول أحواض زهور الياسمين.

كانت فرانسواز تقهقه، وخصلات شعرها تتسدل على وجهها في تمرد، ووجهها يعلوه التراب. لحقتها ليسا، وأمسكت بها، وارتمت الطفلة على الأرض، أخذت ليسا في دغدغتها.

وفجأة، وكأنما قد أصيبتا بموجة ثلجية، جاءهما صوت يقول في احتقار:

«ما هذه الحماقة!»

كانت دومينيك تقف عند بوابة الحديقة ترقبهما وقد علا وجهها التجهم. توقفتا على الفور عن المرح والضحك. ووقفت فرانسواز تعصر يديها في قلق. شعرت ليسا هي الأخرى بالضيق وهي تعقد مقارنة بين سروالها الذي يعلوه تراب الحديقة، وبين ثوب دومينيك الحريري العاجي اللون والوشاح الوردي الذي تعقده حول عنقها.

قالت دومينيك في برود:

«منذ متى وأنتما على هذا اللهو؟ فرانسواز، ان الكونتيسة تبحث عنك هيا اذهبي اليها بعد أن تصلحي من شأنك.»

كانت ليسا تشعر بأن قلب الكونتيسة سيطير فرحاً، لو أنها رأت فرانسواز على حالتها المشعثة تلك، ولكنها كانت عازفة عن الدخول في صراع مكشوف مع دومينيك أمام الطفلة. وهكذا ربتت على ظهر الطفلة وقالت:

«هيا، اذهبي الآن ياحبيبتي، ولاتنسي أن تغسلي يديك جيداً.»

أطاعتها فرانسواز، وأسرعت بالذهاب، وتركت ليسا وحيدة مع دومينيك، التي شعرت في تلك اللحظة بأنها لاتصل الى مستواها في

أناقتها المفرطة.

أخرجت من جيب سروالها شريطاً من البلاستيك وربطت بها شعرها المشعث الى الوراء، كل ذلك ودومينيك تنظر اليها في احتقار. وجهت حديثها الى دومينيك، وحاولت جهدها أن تكون رقيقة:

«لم أكن أعلم أنك مازلت هنا يا آنسة.»

«حقاً؟ انني ألحظ يا آنسة فيرفاكس أنك لم تضيعي وقتاً في محاولة جعل نفسك أحد أفراد العائلة. حسناً، افعلي ماشئت، ولكنك ستظلين دائماً دخيلة. لقد شهد هذا القصر مايكفي من الزوجات الانكليزيات. لماذا لاتنهين أعمالك وتعودين الى لندن الى حيث تنتمين.»

قالت ليسا وهي تحاول السيطرة على أعصابها:

«لست دخيلة في نظر الجميع. ثم أنني سأكون فرداً من العائلة حين يعقد قراني على بول.»

«هل تعتقدين حقيقة أن راؤول سيسمح لك بالزواج من بول؟ انه يعلم أي نوع من النساء أنت. فيكتوار أخرى في العائلة! ان ذلك لكثير.»

تجمدت ليسا تحت وقع الهجوم. فيكتوار أخرى؟ بحق السماء، ماذا تعني دومينيك بذلك؟ اقتربت منها دومينيك أكثر وقالت:

«يجب عليك ألا تعتقدي أن بوسعك اكتساب راؤول الى جانبك بمحاولة اثارة مشكلة حول فرانسواز. فمن الحماقة أن تظني أنه يهتم بها فهي ليس سوى أثر يذكره بأسوأ غلطة ارتكبها في حياته.»

«ابنته؟»

«تماماً أيتها الحمقاء الصغيرة. انها ليست طفلته على الاطلاق. لقد قالت له فيكتوار ذلك بنفسها.»

حدقت فيها ليسا في لحظة مليئة بالهلع. ثم أخذت تعدو وهي تصم أذنيها، عائدة الى القصر.

٨ ـ ورق الشجر يرتعش

وقفت ليسا بجوار النافذة تدق بأصابعها في قلق على زجاجها. هل من الممكن أن يكون ما ذكرته دومينيك من تقوّلات فظيعة صحيحاً؟ ان ما زعمته يوضح، بدون شك، معاملة راؤول الغريبة لفرانسواز. واذا كان ذلك صحيحاً، فيا أهول ما تكشفت عنها هذه المزاعم من قبح وبؤس.

ان ماقالته دومينيك يوضح أشياء أخرى كثيرة أيضاً، من بينها ملاحظات راؤول حول احتمال تعرض حياة بول للدمار اذا ما استمرت علاقتهما. ان موقفه هذا من بول موقف مفهوم، من خلال ما تعرض له هو نفسه من تجربة زواج فاشل.

ومع ذلك، فليس من حقه أن يظن بها الظنون. يجب أن يظل غضبها منه مشتعلاً. فمن الخطورة بمكان أن تسمح للمشاعر الخادعة مثل العطف والأسى تجاهه أن تتسلل اليها. ثم، كيف يمكنه أن يعامل فرانسواز على هذا النحو، وهي قبل كل شيء، الطفلة البريئة تماماً.

وتذكرت كيف وجهت لراؤول هذا الصباح بالذات اتهاماً بأنه لا يحب فرانسواز كما يجب أن يحب الأب ابنته. لا بدّ أن كل كلمة منها كانت بمثابة طعنة له. فلا عجب اذن من ردة فعله الغاضب! بل

الأعجب أن يتمكن من السيطرة على نفسه مثلما فعل.

دخلت ماغي الغرفة وقالت مبتهجة:

«لدي أنباء طيبة! لقد حضرت آن ماري.»

قالت ليسا في ابتهاج حقيقي لرؤية آن ماري مرة أخرى، برغم ما كانت تشعر به من اضطراب في داخلها:

«هذا شيء رائع! متى وصلت؟»

«منذ نحو ساعة على ما أظن. لقد اصطحبت معها، فتاة رقيقة اسمها نيكول وهي ابنة عم لهم على ما أعتقد»

ثم أردفت وهي تتنهد:

«لو أن دومينيك رحلت عنا، لكان جمعاً عائلياً رائعاً. ولكن ليس لدي أدنى أمل في أن يحدث ذلك. انها تلتصق بالمكان الى أن يتم لها اختطاف الكونت.»

«هل تعتقدين أنه سيتزوجها؟»

«أعتقد أن ذلك ممكن. فهناك عدد من النقاط في صالحها. كما تعلمين، فالعائلتان لهما الاهتمامات العملية نفسها كما انهما يعرفان بعضهما البعض منذ أعوام. وقد ألمحت لي الكونتيسة أن زواج راؤول الأول كان زواجاً عاطفياً عاصفاً، ولذلك فقد يكون عازماً في المرة الثانية الخروج عن قوقعته العاطفية تلك، ويكتفي بزوجة جميلة تعرف كيف تقوم بواجبات سيدة المجتمع.»

كانت نيكول دوبريه فتاة رشيقة سمراء، وشخصية هادئة على خلاف شخصية آن ماري المتوثبة. وتأكد لليسا أن ذلك التناقض عامل هام في نجاح حياتهما معاً في شقة واحدة في باريس. وتذكرت في ألم جيني التي تستعد حالياً للزواج من روجر وهي تشعر بالأمان والسعادة. لقد كانتا تعيشان حياة بسيطة وغير معقدة، قبل أن يدخل حياتهما الأخوان دي جو.

ولقد أدهشها أن تعلم من آن ماري أن نيكول برغم مايبدو عليها من خجل، تتمتع بموهبة تصميم نقوش الأقمشة، وأنها تعتبر من أفضل العاملين في هذا المجال في بيت فونتين في باريس. ولقد أثار دهشتها بشكل أكبر أن تعلم من آن ماري أن نيكول هي صاحبة تصميم باشانت الذي شاهدته في لندن في تلك الليلة التي لاتنسى لأول لقائها مع راؤول.

قالت ليسا في دهشة وهي توجه حديثها الى نيكول:

«كان في غاية الروعة»

احمرّ وجه نيكول قليلاً في خجل وتمتمت شيئاً غير مفهوم. قالت آن ماري:

«انها متواضعة للغاية. ولقد نال هذا التصميم نجاحاً منقطع النظير.»

سألت ليسا نيكول في اهتمام حقيقي:

«ولكن كيف بحق السماء تبتكرين تلك الأفكار؟»

«لقد نسيت كيف جاءتني فكرة ذلك التصميم. أعتقد أن ذلك كان يرجع الى مجيء الربيع بكل ما يعنيه. فالكل يشعر بالأمل في وقت الربيع، وأردت نقل مشاعر الأمل والرغبة تلك.»

قالت آن ماري في اصرار:

«يجب أن تجعلي ليسا ترى بعض تصميماتك الأخرى.»

ثم توجهت بالحديث الى ليسا:

«هناك تصميم يناسبك وكأنه ابتكر خصيصاً من أجلك.»

«لاتقولي انه ليلة منتصف الليل.»

ظهر على وجه نيكول الدهشة وقالت:

«هذا صحيح. لقد فكرت في ذلك بمجرد رؤيتي لك. ولكن كيف عرفت؟»

«لقد شاهدت نموذجاً منه.»

تذكرت ليسا في تلك اللحظة اللفافة التي خبأتها في خزانة الملابس على عجل. وشعرت بالدماء تشتعل في وجهها، خاصة وأن راؤول دي جو الذي كان يجلس على الأريكة يتحدث مع دومينيك، لابد قد وصل الى سمعه جزء من حديثهن على الأقل.

قالت نيكول:

«سوف أعمل خلال الأيام القليلة المقبلة في الاستديو بعمل خاص عهد به اليّ راؤول. ويسعدني أن تشاهدي بعضاً من منتجاتنا.»

شعرت ليسا بأن هناك نوعاً من التحفظ في تصرفات نيكول. ترى هل يرجع ذلك الى أنّ نيكول لاتحبها؟ كلا بالتأكيد، فلم يكن هناك ذلك العداء الذي شعرت به تجاه دومينيك. ولكن هناك شيء لاتستطيع ليسا أن تضع اصبعها عليه فيما يتعلق بتحفظ نيكول تجاهها. قالت ترد على دعوتها في حماس:

«شكراً لك. يسعدني كثيراً أن أرى تصميماتك. ولكن أين يوجد هذا الاستديو الذي أشرت اليه؟»

قالت آن ماري:

«ألم يخبرك به بول؟ ولكن ذلك أمر طبيعي منه انه لايهتم كثيراً بأعمال فونتين هذه الأيام. ان الاستديو موجود في القصر. لقد أسسه جدي ليعمل فيه بهدوء. وكانت جدتي دائماً تشاركه في وضع التصميمات وان كان كل منهما يختلف في الذوق. فقد كان جدي يفضل التصميمات التجريدية، أما جدتي فكانت تحب الزهور وأوراقها، أي كل الأشياء الناضرة والبسيطة مثل حديقتها.»

«أتمنى أن أراها.»

«بالطبع سوف تقابلينها عندما تعلن خطوبتك على بول. أتوقع أن يأخذك الى الانتيب لتقابليها. ان صحتها لاتحتمل السفر في هذه الأيام.»

تمتمت ليسا قائلة بدون شك وعاد اليها حرجها من جديد. لاحظت على وجه نيكول وفي عينيها ألماً خفيفاً أخفته سريعاً تحت ستار تحفظها في تلك اللحظة. وردت على خاطر ليسا فكرة خاطفة وكأنما أضيئت فجأة غرفة مظلمة. بالطبع، ان نيكول تحب بول. وهذا سبب تحفظها معي. لابدّ اذن أنني أسبب لها عذاباً كبيراً.

خطرت لليسا فكرة إبلاغ نيكول بالحقيقة عندما يكونان على إنفراد، ولكنها تخلت عن تلك الفكرة، وقررت ان اخراجها من تلك الورطة تقع على عاتق بول. كما أنه سيكون من الخطأ أن تتدخل في الوقت الذي لاتعلم فيه شيئاً على الاطلاق عن مشاعر بول تجاه نيكول.

ان بول بالتأكيد أصبح الآن شخصاً يختلف تماماً عن ذلك الشاب المرح الجذاب الذي كان يصاحبها في لندن. ربما كان من حسن حظها أنها لم تتورط معه أكثر من ذلك، وإلاّ لوجدت نفسها الآن في موقف لاتحسد عليه، مابين نيكول ودومينيك، ويبدو أن كلاً منهما تعتقد أنها أحق بمشاعره وحبه.

قالت لنفسها: ان نيكول تناسبه تماماً، وهي الانسانة التي يمكن أن تفعل منه شيئاً.

وتذكرت فجأة شيئاً قالته جيني مرة، ان حالة الحب التي يمر بها الانسان، تجعله أكثر تفهماً للمشاكل العاطفية للآخرين. ان ذلك يبدو منطبقاً تماماً مع حالتها. وشعرت أن الألم يعتصر قلبها من هذه الفكرة.

استأنفت آن ماري الحديث:

«ان صحة نيكول المسكينة ليست على مايرام في الأيام الأخيرة. وهكذا أصدر راؤول أوامره بأن تأخذ قسطاً من الراحة هنا لمدة أسبوع أو اثنين.»

قالت نيكول في نبرة تنم عن مشاعر حب حقيقية:

«ان راؤول يقدر دائماً الظروف.»

قالت أن ماري ضاحكة:

«انه دائماً يقدر الأشياء الثمينة التي في حوزته.»

أحست ليسا بالحزن فجأة. انه يفكر دائماً ويتعاطف مع الآخريات، وشعرت في ألم أنه لم يكن ليبدي إحتقاره لها في شكل أكثر وضوحاً من ذلك.

في تلك اللحظة انضمت اليها دومينيك. كانت كعادتها ترتدي ثياباً أنيقة ويسبقها عطرها الفواح. قالت بعد أن أومأت في برود لكل من ليسا وأن ماري:

«مساء الخير يانيكول. يالها من مفاجأة! لم أكن أتوقع رؤيتك هنا في هذا الوقت بالذات.»

ساد الصمت، وأحست ليسا بوجهها يشتعل غضباً. كان واضحاً ما تعنيه دومينيك بذلك، خطبتها المزعومة لبول، كما كان واضحاً أيضاً أنها تحاول عامدة أن تجرح مشاعر نيكول. ولم يكن من الصعب على ليسا أن تتأكد من مجرد إلقاء نظرة على وجه نيكول والشحوب الذي بدا عليه، وتلك النظرة التائهة في عينيها، صدق حدسها بأن مشاعر نيكول تجاه بول. وردت نيكول في رقة وكبرياء:

«لمن دواعي سعادتي دائماً أن آتي الى سانت دينيس. فانني اعتبره دائماً بمثابة بيتي الثاني.»

قالت ليسا لنفسها: أحسنت يانيكول بهذا الرد، ولكن دومينيك لم تكن قد فرغت منها بعد، قالت في هدوء وهي تصلح من ردائها:

«ولكن للأسف، هناك وقت يجب على الانسان فيه أن يغادر بيته اذ يجب علينا ألا نستغل كرم ضيافتهم.»

لم يكن هناك ثمة شك فيا تعنيه. انه ليس هناك مكان لنيكول في القصر، ما أن تصبح له سيدة، سواء أكانت زوجة راؤول أم زوجة بول. لم تشك ليسا للحظة في أن دومينيك تستمتع بلحظات انتصار انتصار على من كانت في وقت من الأوقات بمثابة منافس لها.ومما زاد من تعاسة الموقف أن بول دخل في تلك اللحظة وهو يحمل لفة أعطاها لنيكول التي أخذتها منه في كثير من التحفظ.

لم تستطع ليسا أن تتحمل عذاب هذا الموقف أكثر من ذلك. وهكذا استأذنت وأسرعت بالخروج من الغرفة. عندما وصلت الى الدرج المؤدي الى أعلى، سمعت من خلفها صوتاً يقول في لهجة آمرة:

«ياآنسة.»

كان راؤول دي جو يأتي عبر الردهة حتى وصل الى الدرج ونظر اليها قائلا:

«ليست هذه هي المرة الأولى التي أراك فيها تفرين. هل لي أن أعرف ما الذي سبب لك الاضطراب في هذه المرة؟»

«لست مضطربة بأي حال من الأحوال.»

«انك كاذبة، ولكن باعتبارك ضيفتي، فسوف أقبل منك ماتقولين، ولكنني سوف أنتظر الى أن يجيء الوقت الذي تشعرين فيه بأنك على استعداد لمصارحتي بمشاعرك.»

«ان كوني ضيفتك لم يحمني من مطاردتك لي ياسيدي.»

«هذه هي المرة الأولى التي تجرؤ امرأة على توجيه مثل هذا الكلام لي.»

«حقاً؟ من الواضح أن نساءك الآخريات، لم يكنّ يجرون على التعبير عن رأيهن، بسبب تلك المعاملة الديكتاتورية التي هي أحدى صفاتك.»

«نسائي الآخريات؟ ان ذلك يعني ضمناً، ياجميلتي، انك واحدة منهن.

ولكنني لا أعتبرك حتى الآن إحدى نسائي، فان بعض القبلات لاتعني خضوعك النهائي لي. وفي أية حال فانني أفضل بريق عينيك على تلك الدموع التي رأيتها تملأ عينيك عندما تبعتك الى هنا.»

«انك تستمتع دائماً بإيلامي.»

«يبدو أنها متعة متبذلة.»

توقف لحظة عن الكلام، ثم مدّ اليها يديه قائلاً:

«هيا تعالي، لنعد مرة أخرى الى غرفة الاستقبال. لا بدّ أن شيئاً قالته دومينيك سبب لك هذا الضيق. في أية حال. ان ذلك لن يستمر طويلاً. فان السيدة ديزموند على وشك الانتهاء من عملها هنا، ولن يمضي وقت طويل قبل عودتكما الى لندن.»

«أرجو أن تعذرني هذه الليلة ياسيدي، أشعر بصداع عنيف. أعتقد أنني لم أشف تماماً من حادثة سقوطي من فوق الجواد. وبهذه المناسبة أشكرك كثيراً على أنك لم تكشف عن حقيقة تصرفي الغبي في ذلك اليوم للكونتيسة وللسيدة ديزموند، كان ذلك لطفاً منك.»

«انني في خدمتك دائماً ياآنسة. وأعلم تماماً قدر الجهد الذي بذلته لتقولي هذه الكلمات التي تعترفين فيها بأنني أتمتع ببعض صفات الشهامة.»

«خاصة وأنا أعلم تماماً تلك الشهامة تجاهي بالذات ليست سوى مظهر خادع.»

«أوه، ما كان يجب عليك قول ذلك. انني أشعر بشهامة حقيقية في هذه اللحظة. هل أحملك الى غرفتك طالما أنك تشعرين بالتوعك؟ يبدو ان لدي مجموعة من المرضى يعيشون تحت سقف بيتي في هذه اللحظة. فان نيكول أيضاً ليست على مايرام. ولكن المسكينة تعاني أساساً من حب مفقود. أما أنت فلا أعتقد أن ذلك ينطبق عليك ياجيليتي.»

تقدم منها وأمسكها بقوة من رسغها. نظر اليها بعينيه السوداوين

نظرة اهتزت لها كل حواسها. وكانت نكهة سيكارته، ورائحة النظافة الدافئة التي تفوح منه قد أشعلتا مشاعرها الى الحد الذي أحست عنده أنها ستفقد الوعي شوقاً اليه... قالت وهي تقاومه:

«دعني وشأني.»

«أتريدين أن أراك تنهارين عند قدمي. انك ترتعشين كورقة الشجر، ولا يصح للمضيف الكريم أن يتخلى عن ضيفة وهو في حالة مثل حالتك.»

ثم قال مبتسماً وهو يقترب منها أكثر:

«هل أحملك الى سريرك ياآنسة؟»

في تلك اللحظة دخل بول الى الردهة وصاح في انزعاج:

«ياإلهي، ما هذا؟»

ومع أن ليسا أحست بالارتياح لخروجها من هذا الموقف إلا أنه كان يغلب عليها أيضاً الشعور بالاحباط كان راؤول هو الأسبق بالحديث:

«خطيبتك كانت على وشك الاغماء. يبدو أنها مازالت تعاني من آثار سقطتها من فوق الجواد. وقد عرضت عليها مساعدتها في الذهاب الى غرفتها.»

قال بول في قلق:

«ليسا، هل أنت بخير؟»

«أعتقد أنني في حاجة لبعض الراحة.»

«بالطبع ياعزيزتي.»

انحنى عليها بول وقبلها في جبينها. استسلمت له في بؤس، وهي تلمح تلك النظرة الساخرة في عيني راؤول. وضع بول يده حولها وقادها الى غرفة نومها.

عندما أصبحا وحيدين في الغرفة، حاولت ليسا أن تكتشف من

بول نوع مشاعره تجاه نيكول. ولكنه كان يراوغها.

«تعلمين ياعزيزتي. كيف تحدث مثل هذه الأشياء.»

«لقد بدأت أعرف.»

ثم قالت في غضب:

«وأنا، ماذا كنت أنا بالتحديد، واحدة أخرى من هذه الأشياء؟»

«كلا، بالطبع، كيف تعتقدين ذلك؟ انني أحبك ياليسا الجميلة. وأقدم لك أنت قلبي وحياتي كلها.»

«انني لست سلعة تباع في السوق.»

شعرت ليسا بمدى ما في قولها هذا من قسوة. انها ليست غلطة بول وحده أن يولد وله كل المزايا التي تجعله يفوق غيره من الرجال. كما أنه ليس شاباً مدللاً تماماً. فقد بدأ يهتم بوظيفته الجديدة في إدارة الضيعة وبدأ يأسف على حياته اللاهية في لندن وباريس من قبل.

قالت في صوت أكثر رقة:

«بول. أعتقد أن الوقت قد حان لتبلغ الآخرين بالحقيقة.»

«ماذا تقصدين؟»

«أقصد أن هذه اللعبة قد طالت بما يكفي.»

«ولكننا اتفقنا.»

قالت ليسا في يأس:

«أجل. أعلم ذلك. ولكنني أعتقد أنها أصبحت غير ضرورية الآن. أولا لأنني أعتقد أن والدتك قد بدأت تساورها الشكوك في أنه لايوجد شيء بيننا. ولذلك فلن تنزعج كثيراً كما أنك تأكدت أن دومينيك لم تعد راغبة فيك الآن.»

أشعل بول سيكارته في عصبية، وأدركت ليسا أن ماقالته لم يتسم باللياقة. صحيح أن بول قد ينظر الى زواجه من دومينيك

باعتباره قدر والموت أفضل منه، ولكن ذلك لايعني أنها تستطيع أن تفقد اهتمامها به متى شاءت.

انه مازال يشعر بالزهو بأنه ينال الاهتمام، ويود أن يثبت لنفسه أن جاذبيته للنساء لاتقاوم. وقالت ليسا لنفسها: ان زوجته، أياً كانت، يجب أن تكون متفهمة تماماً لهذا الجانب فيه، وهو الشيء الذي لا أستطيع فعله . قال بول في عناد:

«حسناً. أعتقد أنه من الجنون التخلي عن هذا الأمر الآن. سنستمر فقط الى أن يقتنع راؤول.»

قالت ليسا وهي تواجهه في غضب:

«وهذا شيء آخر أرد أن أحدثك فيه. وهل من الضروري أن تقوم بهذا الاستعراض العاطفي معي طوال اليومين الماضيين، وخاصة ماحدث على الدرج منذ فترة وجيزة؟ أود أن أذكرك أن ذلك لم يكن من بين شروط الصفقة بيننا.»

قال وهو يضحك في سهولة:

«ولكن ذلك لم يكن أمراً سيئاً. فقد تخلصنا به من راؤول. أليس كذلك؟ وهو ما كنت ترغبين فيه.»

ثم أردف وهو ينظر اليها في استغراب:

«لقد تغيرت ياليسا. لست أنت الفتاة التي عرفتها في لندن. وانني لأعجب أين ذهبت؟ ولمن تراها أعطت قلبها، اذا لم تكن قد أعطتني أنا إياه؟»

«لا أعتقد أن أياً منا قد تغير حقيقة يابول. وأعتقد أن قضاء هذا الوقت معاً كانت له فائدة واحدة على الأقل. فقد أثبت لكل منا أننا لانصلح لبعضنا البعض. ربما لم يكن ذلك هو هدفنا الأساسي في البداية ولكن...»

قال وقد بدا عليه الحزن وهو يأخذ نفساً عميقاً من سيكارته ثم

يسحقها في عنف في منفضة السكائر:

«ياللشيطان. ليسا. أعترف لك أن علاقتنا بدأت من جانبي نوعاً من المباراة مع راؤول. جاهداً أن أحصل على أفضل ما فيه. ولكنها تحولت الى شيء يسبب الألم لكلينا. أليس كذلك؟»

أحنت ليسا رأسها وقالت بلا إحساس:

«أجل.»

قال وهو يربت على شعرها في رقة:

«يالليسا المسكينة! ولكن أعدك ألا يطول هذا الأمر.»

ابتسمت له في ضعف. وشعرت أنهما في تلك اللحظة أقرب الى بعضهما البعض أكثر من أي وقت آخر منذ بداية تعارفهما في لندن. برغم أنهما لايشعران بحب حقيقي تجاه بعضهما البعض.

وجدت ليسا في العمل خلال اليومين التاليين راحة لها. وقد أغلقت عليها هي و ماغي غرفة المكتب. كانت ماغي تمضي في كتابها بخطى سريعة. تنجز صفحات عديدة لليسا لتنسخها على الآلة الكاتبة في الصباح. وتملي عليها صفحات أخرى بعد الظهر.

كذلك بدأ الجو في التغير الآن. وبدأت الرياح الباردة والأمطار تصك النوافذ. وتجعلهما سعيدتين بالجلوس الى جانب المدفأة.

كثيراً ما كانت ليسا أثناء عملها على الآلة الكاتبة. وأمامها ماغي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً. تقرأ صفحات مما يتم انجازه أحياناً. وتلقي أحياناً أخرى بصفحات أخرى في المدفأة. كثيراً ما كانت ليسا تفكر في الحديقة. ومايمكن أن يفعله بها مثل هذا الجو. بعد أن شارفت على السيطرة عليها.

ياله من عناء منها أن تفكر كثيراً على هذا النحو. في الوقت الذي سترحل فيه عنها قريباً. وستتركها لتعود الى سيرتها الأولى مرة أخرى. ما لم تقم دومينيك... ولكن لا. ان ذلك أمر لا يمكن التفكير فيه. انها

ستكون سيدة القصر. التي لايعنيها الذهاب أو التفكير في الحديقة مع كل مشاكل الحياة اليومية كزوجة وأم.

من الذي سيعنيه التفكير في الورود. التي أصبحت الآن في أحسن صورة. عندما يأتي العام القادم؟ من سيعنيه أن يجذب تلك الحشائش الضارة التي عانت ليسا الكثير في إزالتها؟ لو أن تلك الحديقة تركت لها للعناية بها. لابتاعت لها المزيد من الورود.

تنهدت وتوقفت أصابعها عن العمل على الآلة الكاتبة الى أن أدركت أن ماغي تحملق فيها. عادت الى العمل فأدركت أنها قد ارتكبت الكثير من الأخطاء. وأن عليها أن تعيد ما كتبته على تلك الصفحة.

وذات يوم. عندما كانتا تعملان. قالت ماغي بصورة عفوية:

«أعتقد أنه يمكنتا إعداد الترتيبات للعودة الى بلدنا في نهاية الأسبوع القادم. لقد شارفت على الانتهاء مما أحتاج اليه هنا.»

قالت ليسا:

«هكذا سريعاً؟»

ألقت عليها ماغي نظرة حادة وقالت:

«كنت أعتقد أن الأمر لم يكن بهذه الاهمية بالنسبة إليك.»

قالت ليسا لنفسها: انها فعلاً على حق. فان آخر شيء يمكن أن ترغب فيه هو أن تشهد الانتصار النهائي لدومينيك.

استدركت قائلة وهي تحاول إخفاء أفكارها وتنظر من النافذة:

«ان الجو بدأ يعتدل. على الأقل يمكنني أن أقوم بشيء للحديقة قبل أن نرحل.»

ألقت عليها ماغي نظرة رثاء. وتفهم في آن واحد وقالت:

«أرجو ألا تخلفي وراءك من المشاعر أكثر مما يلزم. وانني لست أعني بذلك وردة أو اثنتين.»

قالت ليسا على الفور وهي تشد قامتها:

«كلا، سوف أرحل بدون النظر الى الوراء.»

تمتمت مالي متشككة وأردفت:

«والآن، عودة الى نهاية الفصل السادس، انني لست واثقة من رد فعل الكونت الكبير في ذلك الموضع.»

انتظرت ليسا وهي تصلح من الأوراق وأردفت قائلة:

«ان التاريخ دائماً يعيد نفسه.»

لم تنس ليسا تعهدها لنفسها فيما يتعلق بفرانسواز، ومن ثم عقدت العزم على أن تبحث عن الفتاة الصغيرة قبل أن تتوجه الى الحديقة.

كانت الورود على أحسن صورة في أعقاب الأمطار، واقترحت فرانسواز أن تقطف بعضاً منها لتضعها على مكتب والدها. وافقت ليسا، واعتبرت أنه سيكون مدخلا مفيداً لحملتها في إيجاد نوع من المصالحة بين راؤول وابنته، وأن تقنعه بأن تلك القصة التي سمعتها ليست سوى كذبة خبيثة. فقد كانت مقتنعة، برغم تأكيدات دومينيك، أن فرانسواز هي ابنة راؤول، وأن زوجته، لسبب لايعرفه سواها، قد كذبت عن عمد لابد أن زواجها كان في حالة يرثى لها، حتى تفكر في أن تقول له شيئاً كهذا.

ولكن فرانسواز تشبه والدها الى حد بعيد. ان ملامح وجهيهما متشابهة فكيف لم يلحظ راؤول ذلك؟ لابد أن الصدمة والرعب، وعلمه بأن زوجته كانت تصادق عدداً من الرجال قد أعمى عينيه عن الحقيقة.

مرة أخرى هتف صوت من داخلها بألا تتدخل في شؤون غيرها. ولكن إحساسها بما هو حق وعدل يفرض عليها ألا تتخلى عن هذا الأمر، بالاضافة الى أنها بدأت تحب فرانسواز.

عندما انتهت فرانسواز من إعداد باقة جميلة من الورود، فاجأهما صوت بول وهو يدخل الى الحديقة مع نيكول. ولكن ليسا شعرت بالاستياء وهي ترى دومينيك تأتي من خلفهما. سارعت ليسا بشكل غريزي في حماية فرانسواز، وطلبت منها أن تعود الى الداخل، وأن تطلب من السيدة باريت إناء لتضع فيه الورود.

نظرت نيكول حولها في دهشة وقالت:

«أوه، ما أروع الحديقة. لابد أن الآنسة فيرفاكس تتمتع بأصابع خضراء، على حد التعبير الانكليزي. لقد كانت جرداء، والآن أصبحت جنة للجمال بفضل ليسا.»

قال بول متضاحكاً:

«لا بدّ أن تكون كذلك. لايمكن أن تصدقي كم من الوقت أمضته فيها. ففي أي وقت لم تكن السيدة ديزموند في حاجة اليها، لما عثرت عليها إلاّ هنا.»

قالت دومينيك:

«هل هذه هي الطريقة الانكليزية للحب؟ أن تقضي المرأة وقتها منحنية عند قدمي الرجل؟ أما أنا، فأفضل أن ينحني الرجل عند قدمي. ألا توافقينني يانيكول؟ ان المكان هنا دافىء، وبعيد عن الأعين، وخسارة أن يكون حديقة. انه مكان رائع لاقامة حمام للسباحة. فكر في الأمر يابول.»

«أعتقد أنه طالما أن جدتي على قيد الحياة، فسيبقى هذا المكان حديقة، وأعتقد أيضاً أن راؤول له الرأي نفسه.»

«ربما، ولكن يمكن إقناع راؤول دائماً بتغيير رأيه، في النهاية.»

والتفتت الى ليسا قائلة:

«أنصحك بألا تقضي كثيراً من وقتك راكعة يا آنسة. فلن يكون هناك من يقدر جهودك عندما تعودين الى لندن.»

كان بإمكانها مواجهة فظاظتها بمثلها، ولكن ليسا فضلت ألا تدخل في شجار مع دومينيك في حضور نيكول التي كان ذلك سيسبب لها نوعاً من الألم. وبدلا من ذلك ابتسمت قائلة:

«لقد أخذت من أشعة الشمس مايكفيني اليوم، آنسة نيكول، هل نعود سوياً الى الداخل.»

وافقت نيكول على الفور، وأصرت على مساعدتها في حمل بعض الأدوات التي كانت تستخدمها في تهذيب الحديقة لاعادتها الى الاصطبل.

قالت ليسا بعد مغادرتهما الاصطبل، وهما في طريق عودتهما من الجناح الذي يضم المطابخ في القصر:

«هل أنجزت أي عمل منذ مجيئك الى هنا؟»

قالت نيكول في تردد:

«القليل. قلت من قبل انك تودين رؤية الاستديو هل يناسبك أن تقومي بذلك الآن؟»

نظرت ليسا حولها في تشكك، وسألتها:

«هل هو قريب من هنا؟»

ابتسمت نيكول وقالت:

«قريب جداً.»

وفي الداخل، كان هناك درج مبني على طراز حديث، يؤدي الى طابق علوي. في هذا الطابق، أستديو على أحدث طراز، له أرضية خشبية جديدة ونوافذ ضخمة تحتل حائطين كاملين من جدران الغرفة وتصل الى السقف. بالاضافة الى صناديق الألوان المنتشرة هنا وهناك، وفي أحد الأركان هناك طاولة ذات مسند خشبية وضعت عليها أكوام من الأقمشة. التقطت نيكول بعض اللفافات الكبيرة وحلت أربطتها. قالت نيكول وهي تعطي بعض الأوراق الى ليسا تفهم تدريجياً

للنقوش التي تطبع على الأقمشة. كانت الألوان تأخذ تدرجات اللون الرمادي مع خيط ذهبي متموج ينساب في أنحاء اللوحة ليعطي التأثير النهائي.

«اننا نعد الآن مجموعة الخريف، كما تعلمين. هذه القطعة أطلق عليها اسم تنهدة الخريف.»

نظرت ليسا الى اللوحة في افتتان، وصاحت في إعجاب كعادتها عندما يقع نظرها على شيء جميل. وقالت نيكول:

«أعتقد أن لكل منا الذوق نفسه ياآنسة.»

ثم توقفت عن الكلام، وبدأت في قضم شفتها عندما أدركت معنى الجملة التي قالتها.

شعرت ليسا بالأسى لها، وقالت في رقة:

«ليس في كل شيء، على ما أظن ياآنسة. كما أنني أعتقد أن الوقت قد حان لرفع تلك الكلفة بيننا، وأحب أن تناديني بليسا فقط.»

نظرت اليها نيكول في شيء من الحزن وقالت:

«بالتأكيد، فانني أحب أن تكون صديقتي.»

جالت ليسا في الغرفة، وهي تنظر الى لوحات التصميمات التي لم تكتمل بعد. جذبت اهتمامها لوحة كبيرة للرسم، وعليها ورقة رسم جعل وجهها الى الحائط. قالت وهي تديرها:

«ما هذا؟»

وقرأت عنوان اللوحة قطعة من المقاومة؟

سارعت نيكول على الفور قائلة:

«أوه، لا كلا يا آنسة، ان هذه اللوحة سرية للغاية.»

أدركت ليسا على الفور السبب وراء هذه السرية. فقد كان تصميماً لا يصلح إلا لرداء الزفاف. لم تر ليسا من قبل تصميماً في مثل روعته ورومانتيكيته، وقفت مشدوهة لحظة ثم قالت أخيراً:

«انني آسفة لتطفلي.»

جاءت نيكول وأعادت اللوحة على ماكنت عليه قائلة:

«كانت غلطتي أنا، كان يجب عليّ أن أحذرك. فان بعض تصميماتنا سرية للغاية ولا يسمح لأحد برؤيتها. فما بالك لو أن التصميم خاص بصاحب العمل نفسه وبأوامر منه... لقد أصدر أوامر مشددة بألاّ يراه أحد على الاطلاق.»

قالت ليسا وقد انتابها شعور بالألم في معدتها:

«هل التصميم من أجل الكونت نفسه؟»

«لقد صدر به أمر خاص جداً، سري للغاية، وفي أسرع وقت أيضاً واني أعتقد أنه قرر أن يكون لسانت دينيس أخيراً كونتيسة من جديد. لقد شرح لي بالضبط مايريده مني قبل مجيئي الى هنا. وسوف يطلق عليه اسم يوم الزفاف.»

شعرت ليسا أنها تريد الهروب من الاستديو، وحتى من نيكول نفسها التي لم تدرك ماتشعر به ليسا من يأس رهيب. الى هذا الحد اذن، بلغت ترتيبات زواجه! ولكنها بدلاً من ذلك قالت وكأنها تجد راحة في تعذيب نفسها مفكرة في دومينيك وهي في كامل أبهتها بارتداء هذا الثوب، يغطي وجهها الوشاح، ومن تحته يشع بريق عقد دي جو الثمين:

«انه مناسب تماماً.»

«ان القيام بهذا التصميم يعد امتيازاً. وأعتقد أن راؤول كان يعني أن يقتصر هذا السر على العائلة. وبناء على ذلك، فلا ضير هناك من أن تعرفي هذا السر.»

قررت ليسا في تلك اللحظة أن الوقت قد حان لأن تكشف لنيكول الحقيقة، فهي لم تعد تحتمل تلك النظرة في عينيها. قالت في رقة:

«نيكول إنني لست مخطوبة لبول، ولم أكن كذلك مطلقاً. لقد كان الامر كله مجرّد خدعة طلب مني بول أن ألعبها على راؤول لأسباب ليس هذا وقت الدخول في تفاصيلها، وقد يكشفها هو لك بنفسه، وآمل أن يفعل ذلك. لقد أردت أن تعلمي أنت بهذه الحقيقة لأنني أعرف أنك غير سعيدة وأنني مسؤولة الى حد ما عن هذه التعاسة، ولأنني أعلم تماماً مشاعرك. هذا هو كل ما في الأمر.»

اندفعت ليسا نحو نيكول وانحنت عليها تقبلها على وجنتها، ثم أسرعت تجري نحو الباب، هبطت الدرج وخرجت الى فناء الاصطبل، وهي تستنشق في عمق الهواء النقي في الخارج.

سمعت ميسترال، الذي أصبح الآن يعرف خطواتها، يصهل في طرب. سارت نحو الغرفة التي يقف فيها وهي تحاول السيطرة على نفسها، وجدته يقف انتظاراً لها ولما قد تحمله من حلوى له.

أحاطت ليسا رقبته بذراعها، واخفت وجهها بين خصلات شعره وقالت في همس غير واعية بوجود أي انسان حولها:

«أوه، ميسترال، ماذا أفعل الآن؟ انني أحبه كثيراً!»

٩ ـ انين في الداخل

وصلت ليسا الى غرفة المكتب وقد استعادت شعورها بالراحة، حيث وجدت فرانسواز في انتظارها في شغف وهي تحمل إناء فضياً للزهور، اشتركتا معاً في تنسيق الورود، ووجهتها ليسا الى كيفية تخليص الورود من أشواكها بدون تعريض أصابعها للجراح. سألتها ليسا بصورة عفوية:

«هل قمت بزيارة للقرية مؤخراً؟»

«كلا، بسبب هطول الأمطار، هذا بالاضافة الى أنني...»

«بالاضافة الى أنك لاترتاحين للذهاب هناك لأن الأطفال الآخرين لايرحبون بك كثيراً. أليس كذلك؟ والآن اخبريني ياصغيرتي ماذا حدث؟ ألم تشاركيهم اللعب؟ من الواضح أنهم يعرفونك.»

«عندما كانت مربيتي الآنسة بيرتراند، كنت معتادة الذهاب الى النهر ومشاركتهم اللعب. كنت أحبهم، وأشعر بالسعادة معهم حتى انني بدأت في تعلم السباحة. ولكن عندما جاءت الآنسة فيرود قررت الامتناع عن اللعب مع أطفال القرية لانني ابنة القصر ووضعي هذا لايسمح لي إلاّ بالتصرف في حدود معينة. انها تمنعني حتى من التحدث الى ايفون أو ميشيل أو غيرهما لأوضح لهم هذا التغيير.

وهم الآن يطلقون عليّ اسم المتحذلقة الصغيرة ويسخرون مني.»

يالطفلة المسكينة! كيف تعيش مثل هذه الحياة؟ فلا هي تجد أطفالا في القصر لتشاركهم اللعب، ولا تستطيع أن تلعب مع أقرانها الذين تعرفت عليهم في الخارج. لاعجب اذن أن يثير ذلك غضب أطفال القرية. كما أن فرانسواز محظوظة لأنهم اكتفوا بإطلاق ذلك الاسم عليها. غلى الدم في عروق ليسا، وتوثبت أصابعها لتقبض على الآنسة فيرود، وتهزها بعنف.

سألتها ليسا بصورة حاولت أن تكون عفوية أيضاً:

«ومن الذي أوصى بأن تكون الآنسة فيرود هي مربيتك؟»

«أعتقد أنها دومينيك، وكنت أتمنى لو لم تفعل. انني أشعر بالكآبة مع الآنسة فيرود، وأعتقد أنها هي الأخرى لاتحبني كثيراً.»

قررت ليسا أن من الحكمة أن تغفل هذا الجزء الأخير من ملاحظات فرانسواز، وقالت:

«ولكن هل تحبين العودة للعب مع أطفال القرية من جديد؟ ألا تعتقدين أنك مختلفة عنهم، أو أنك أفضل منهم بصورة أو بأخرى؟»

«كلا، بالتأكيد! كنت أتعلم منهم القفز والسباحة، ولكنني أعتقد أنهم الآن لايرحبون بعودتي اليهم.»

«أوه، لاتقولي ذلك. ان الأمر فقط يحتاج الى وقت، والى شجاعة من جانبك. لو أردت حقيقة أن تكوني واحدة منهم، فسوف يرحبون بذلك بدون شك.»

قامت فرانسواز واحتضنت ليسا في شغف وأكدت لها أنها بالفعل تود ذلك. وقررت ليسا في نفسها القيام بالخطوة الأولى في سبيل إعادة فرانسواز الى أقرانها في أسرع وقت ممكن. بل قد تأخذها لتسبحا معاً في البحيرة الكبيرة أولاً، ثم تقوم آن ماري بتلك المهمة

بعد أن ترحل هي الى لندن.

ولكنها في الوقت نفسه شعرت بالأسى لادراكها أنه بزواج دومينيك من راؤول، فمن المحتمل أن تظل الآنسة فيرود المربية الدائمة لفرانسواز، وتكون حينئذ فرصتها كاملة في تأصيل قيمها البالية في طفلة مثل فرانسواز. وبلا شك سيكون في ذلك نهاية لأي أمل في إرسال فرانسواز الى المدرسة التي تعتقد ليسا أنه أفضل شيء لها.

شعرت فجأة بأنهما ليستا منفردتين في الغرفة، وأن راؤول دي جو يراقبهما عند الباب. كان يرتدي حلة في غاية الأناقة، وعاود ليسا شعورها بأنه أكثر الرجال الذين رأتهم جاذبية. حاولت أن تكبح ذلك الشعور الأنثوي الذي غالبها بأن تزيح تلك الشعيرات المتمردة من فوق جبهته.

قال في صوت ليست به نبرة تنم عن أية مشاعر:

«الاحظ أن كل ذلك الجهد في حديقة جدتي لم يضع هباء.»

«أمل ألا يكون في ذلك أي ازعاج. فقد كانت فرانسواز ترغب في قطف بعض الورود ووضعها على مكتبك الذي أعتقد أنه بحاجة الى بعض الزينة.»

شعرت في يؤس بأنها تتدخل من جديد في شؤونه وقالت لنفسها: الآن سيقول لي ان المكتب للعمل فقط، وأنه لامكان هناك لمثل هذه الرفاهية.

قال وهو يبتسم قليلاً:

«وهل كنت تعتقدين أنني أهتم بأن يزخر مكتبي بالورود وبصور العائلة.»

«كلا، بالتأكيد. ولكن بعض الورود تجعل الغرفة أكثر بهجة ودفئاً.»

«لسوء الحظ أنني تعودت على عدم اعتبار هذا القصر بيتي منذ عدة سنوات.»

كانت هناك نبرة مرارة في صوته انعكس أثرها على الفور على ليسا.

التفتت ليسا الى فرانسواز التي كانت منشغلة بتهذيب الزهور وقالت بسرعة:

«أعتقد أن هذه المجموعة ينقصها ذلك النوع من الورود التي أشرت اليها ونحن في الحديقة صباح اليوم. هيا. أسرعي واحضري بعضاً منها.»

أطاعتها فرانسواز في شغف. وكان تعليق راؤول:

«ان لك طريقة خاصة في معاملة الأطفال. لم أرها بمثل هذا الحماس من قبل.»

«المشكلة هي انك لاتراها على الاطلاق؟»

«لقد خضنا من قبل في مثل هذا الحديث يا آنسة. وأعتقد أنني أوضحت لك تماماً أنني على غير استعداد لمناقشة أمور الطفلة معك.»

«لست ملزمة بإطاعة هذه الأوامر التي تصدرها ياسيدي.»

كانت ليسا تتحدث في جدية، ولكن مشاعر الغضب كانت تمتزج بمشاعر الحب والتعاطف معه. ومصممة على الاحتفاظ هذه المرة بهدوئها وقول مايجب عليها قوله.

«أرجوك . أرجوك ياراؤول. اصغ اليّ. أنني لن أضيع من وقتك الكثير ولكنني لاأستطيع الرحيل في الأسبوع المقبل بدون التحدث اليك بما أعتقد، بما أعرف أنه الحقيقة.»

«وهل تستطيعين قول الحقيقة؟ وهل تستطيع أية امرأة؟ حسناً. هاتي ماعندك. والآن لاتلومي الا نفسك اذا تجاوزت حدك. لقد تحملتك الى أقصى ما في وسعي.»

قالها في مرارة وهو يخرج من جيبه علبة سكائره الفضية ويشعل سيكارة.

كانت تلك بداية غير مشجعة. كانت يداها ترتعشان، ولكنها حاولت السيطرة على نفسها وقالت وهي تحاول أن تشغل نفسها بتنسيق الورود:

«لقد بلغتني قصة فرانسواز واعتقد انه بلغك الشي نفسه. ولكن الفرق بيننا أنك تصدق هذه القصة، أما أنا فلا أستطيع تصديقها. فأي انسان لديه عينان ويشاهدكما أنت وفرانسواز معاً لا يمكن أن يصدق مثل هذه الكذبة. أؤكد لك يا راؤول، ويرغم ما قيل لك ومن قاله، أن فرانسواز ابنتك، من لحمك ودمك. ما عليك سوى أن تنظر في المرآة، وسترى أنها انعكاس لك. انها صورة منك. النظرات، الحركات، أوه. كل شيء!»

توقفت عن الكلام وقد بدأت الدموع تملأ عينيها. أما الرجل الواقف بالباب فلم يحرك ساكناً، ولم يحمل وجهه سوى ذلك التعبير الصارم.

اضطربت ليسا وهي تضع احدى الورود في الاناء، فقد اخترقت اصبعها شوكة وردة، وانساب الدم من يدها. قال راؤول وهو يقترب منها بدون أي تغيير في تعبير وجهه:

«هل أصبت؟»

«انه أمر بسيط مجرد وخزة.»

«كلام فارغ، انك تنزفين.»

أخذ يدها التي كانت تحاول إخفاءها وراء ظهرها، وقطب جبينه وهو يفحص الاصابة:

«هناك جزء من الشوكة مازال في الجرح. يجب اخراجها قبل تضميد

الجرح وإلا فانه قد يصاب بالتلوث.»

قبل أن تحاول منعه، كان قد انحنى على مكان الاصابة، وامتص بشفتيه الشوكة.

أحست ليسا بجسدها يذوب تحت لمسة شفتيه لراحتها، وانهارت كل مقاومة لها. وتبخر تماماً عزمها على عرض مشكلة فرانسواز وتصميمها على ابلاغه الحقيقة بشأن علاقتها ببول، تحت وطأة رغبتها العارمة في لمسة أخرى منه. قال وهو يخطو الى الخلف في أدب:

«آمل ألا أكون قد آلمتك»

أخرج منديلا من جيبه، وجعل منه ضمادة حول اصبعها. أما هي فوقفت مشدوهة، وهي تسعى جاهدة للسيطرة على نفسها.

سألته ليسا في هدوء:

«أعتقد أن كل ماقلته لك لم يغير من الأمر شيئاً. أليس كذلك؟»

«انك فيما يبدو تعلمين أكثر عن حياتي الخاصة. اذن، لابأس أن تعرفي بقية القصة . اجلسي.»

«أفضل الوقوف.»

«وأنا أفضل أن تجلسي. اجلسي... انها ليست بالقصة المسلية، ولكنك استمعت الى أسوأ جزء فيها على ما أعتقد. لقد قابلت فيكتوار، زوجتي الراحلة في باريس. وعملت كعارضة أزياء، وعملت بعض الوقت في فونتين هكذا تقابلنا، بطبيعة الحال. كانت أجمل شيء وقعت عليه عيناي، وكنت أرغب فيها. رغم أن في حياتي نساء أخريات... رجل في مكانتي وثروتي، كما تعلمين، لا تمثل هذه الأمور بالنسبة إليه مشكلة. ولكن فيكتوار كانت مختلفة. كانت تريد أن تحظى بالاسم، والاحترام، وفوق كل شيء المال. وهكذا أوضحت لي منذ البداية أنه بدون رباط الزواج لن تكون لي. ولم أدر حينئذ أن

السبب وراء عدم دعوتها لي الى شقتها إلا بموعد سابق، هو أنها تستقبل معجبين آخرين. أعتقدت أن ذلك نوع من الحياء العذري. ياإلهي، كم كنت أبله! في النهاية، تزوجنا، وجئنا لنقيم هنا، وكان ذلك كارثة. كرهت أن تعمل أي شيء في حياتها. كان كل مايعنيها، الملابس، والمعجبين. وهنا لاتوجد فرصة لاستعراض ملابسها، أو أن يكون لها معجبون. وهكذا بدأت تقوم برحلات الى باريس. لتزور أصدقاء قدامى كما كانت تقول

قالت ليسا وهي تجاهد لاخراج صوتها:

«وماذا عن فرانسواز؟»

«غلطة، كما قالت لي في البداية، ترتبت على المرات القليلة التي شاركتني فيها الفراش. ومرت بفترة حمل عصيبة. وخشي الأطباء على حياتها في الولادة، ولكنها عاشت. أما أنا فقد اعتبرت نفسي مسؤولا عن تلك المحنة التي مرت بها. وهكذا ظللت راكعاً بجوار فراشها وأنا أشكر لها تلك الهبة التي أعطتني إياها فرانسواز، الرقيقة الغالية، التي جاهدت كثيراً للخروج الى الحياة. أما هي فقد ضحكت، برغم وهنها، وكنا بمفردنا. شكرتني على عرفاني بجميلها، ولكنها أردفت قائلة: انها غير واثقة من أنها ابنتي، وذكرت أسماء رجال آخرين، يمكن أن يكون أي واحد منهم، والد فرانسواز.»

قالت ليسا في اشفاق:

«أوه، ياإلهي. لا تقل شيئاً آخر. ليس من حقي أن أستمع الى شيء خاص جداً كهذا.»

«لقد سعيت أنت من أجل ذلك. ويجب أن تعلمي الحقيقة. طوال العام التالي عشنا كزوجين في الظاهر فقط. فلم يكن الطلاق أمراً وارداً. وفي كل مرة أنظر فيها الى الطفلة أشعر أنني ممزق بين عاطفتين. أردت أن

أحبها كابنتي، ولكنني في الوقت نفسه كنت أتعذب تحت وطأة الظنون. وازدادت زيارات فيكتوار لباريس. لم تهتم بالطفلة أو شؤون المنزل. استخدمنا مربية للعناية بفرانسواز. وكانت فيكتوار تتركها مع الطفلة طوال الوقت تقريباً. حتى عندما مرضت فرانسواز، لم تهتم فيكتوار على الاطلاق، بل ضحكت عندما أبلغتها أن الطفلة مريضة وقالت انها ستتركني. وأنها ستذهب الى رجل آخر أكثر ثراء. رجل أعمال يوناني يمتلك أسطولاً لسفن الشحن. كنت أنا مجرد درجة تصعدها في طريقها الى أعلى السلم الاجتماعي.»

نظر الى ليسا. كان الألم الذي لم تشهد مثله في حياتها يعتلي خلجات وجهه. شعرت بأنها تريد أن تجري نحوه، أن تحتضنه وتخفف عنه الآلام. ولكنها لم تجرؤ. منعها إحساسها بأنها هي أيضاً تخدعه. وهكذا جلست مكانها تعتصر بين أصابعها أطراف المنديل الذي ربطه كضمادة حول اصبعها.

«ونهاية القصة، وأعتقد أنك تعرفينها الآن، أنها تركت فرانسواز وهي مريضة، تناديها وهي محمومة، لتأخذ السيارة وتذهب الى صديقها في باريس، ثم مصرعها في النهاية بعد اصطدامها بالقطار.»

«أوه، كلا. لم أسمع بذلك على الاطلاق. لقد قيل لي أن الحادث وقع وهي تسرع عائدة لرؤية طفلتها.»

«كانت تلك هي القصة التي أشعتها بين الجميع. ولكنهم كانوا يعلمون حقيقة الموقف على ما أعتقد. ولكنّ أحداً منهم لم يتفوه بشيء عن الموضوع حتى الآن. ويهمني الآن أن أعلم من الذي جرؤ على إبلاغك بالقصة.»

صمتت ليسا. وقلبها يتفتت ألماً من أجل تلك الطفلة الوحيدة، وهذا الرجل الوحيد أيضاً والذي مزقته شرور امرأة لم تكن راضية عن

حياتها معه. ربما كان انتقامها من راؤول لما عانته في فترة الحمل والولادة.

«انني أنتظر اجابتك يا آنسة.»

«ليس في نيتي أن أبلغك ياسيدي. وأود أن أقول لك، لو كان في ذلك أي عزاء لك، أن من أبلغني كان يسعى الى غرض محدد، وليس لمجرد التسلية بالحديث عن الناس. وكان المقصود إيلامي بهذه الأنباء.»

قال وقد تركزت نظرته عليها فجأة، ولكنها لم تر تلك النظرة لانشغالها بالنظر الى يديها:

«وهل شعرت بالألم؟»

«بالطبع فانني مغرمة جداً بفرانسواز، وربما تكون قد لاحظت ذلك.»

قال في هدوء:

«آه.»

ثم ساد الصمت.

سار راؤول تجاهها، ولكنه لم يحاول أن يمسها. بل جلس على المقعد المواجه لها، تحسس أوراق الورود، وقال كأنما لم يجر بينهما ذلك الحديث السابق:

«كانت هناك ورود دائماً على المكتب عندما كانت جدتي تقيم هنا. وفي الوقت الذي لم تكن الورود متاحة، كانت تضع لجدي أي نوع من الزهور من حديقة أحلامها. لقد أجبرتها فيكتوار على الرحيل من هنا لتقيم في أنتيب. كانت فيكتوار تتميز بالقدرة على إيلام الناس، مثل تلك الشوكة التي اكتشفتها في تلك الوردة، ياجيليتي. ويبدو أنها استمتعت بذلك.»

وتذكرت ليسا في ألم أن دومينيك ستكون نسخة أخرى من فيكتوار. انها تذكر مناقشة دارت مرة بين والديها عن جار لهم تزوج

للمرة الثانية امرأة لها غلظة وسلاطة لسان زوجته الأولى. كان والد ليسا يقول عن هذا الجار انها رغبة العقاب. كانت دائماً ماتبتسم عندما تتذكر هذه القصة. ولكن ليس الآن. الآن أصبح الأمر متعلقاً بها شخصيا، كما أنها لم تعد مجرد قصة تحكى، بل حقيقة. وتذكرت وجه راؤول الجذاب، واستعداد فرانسواز في خجل لاقامة علاقات صداقة، كل ذلك سيختنق الى الأبد في ظل زوجة أب غير عطوفة وغير محبة . أوه، كلا ليس راؤول هو من يفعل ذلك!

اعترض راؤول تسلسل أفكارها وقال في صوت هادىء وودود مرة أخرى:

«كنت أعتزم أن أشكرك على كل مافعلته من أجل الحديقة الصغيرة. ان جدتي ستسعد كثيراً لو أتيحت لها رؤيتها.»

اضطرت ليسا أن ترد عليه بالطريقة نفسها:

«ان ذلك لم يتعبني في شيء. فانني أحب العناية بالحدائق وأشعر بالسعادة في الهواء الطلق. وأشعر بالأسى لأن الحديقة لن تبقى كذلك لوقت طويل.»

أسفت ليسا لقولها تلك الجملة الأخيرة التي قالتها بدون وعي منها. نظر اليها راؤول، الذي كان يشعل سيكارة أخرى، في دهشة وقال:

«ماذا تقصدين؟»

قالت ليسا وهي تعتصر المنديل بين يديها:

«أعتقد أن هناك تفكيراً لتحويلها الى حمام سباحة.»

قال وهو يمعن التفكير:

«آه، أجل. أظن أنني سمعت دومينيك تشير الى شيء كهذا في عدة مناسبات.»

تجرأت ليسا وسألته:

«وما هو شعورك أنت تجاه ذلك؟»

هز كتفيه، وألقى بالقداحة في الهواء، ليعود ويلتقطها:

«في اعتقادي أن النساء الجميلات تملن الى فرض آرائهن، في النهاية، ياجميلتي. ألا تفعلين ذلك أنت؟»

أعفتها فرانسواز من الاجابة على ذلك وهي تعود الى الغرفة وهي يدها الزهور. لاحظت ليسا وهما تقومان بتنسيق الزهور في الاناء أن راؤول لم يرفع عينيه عن فرانسواز. كان يجلس متحفزاً، وهو يراقب فرانسواز وكأنها فريسته. ولكن ليسا لم تستطع رؤية تعبير عينيه فقد كانتا تغطيهما جفونه الثقيلة.

لم تشعر ليسا بمثل هذه التعاسة من قبل. هي نفسها شعرت بالألم عند سماعها ما قاله راؤول. ترى ماذا كان شعوره هو طوال تلك السنين؟ كيف يتسنى لأية امرأة أن تكون بمثل هذه القسوة؟ انها تقدره الآن في موقفه تجاهها هي، ومع التماس الأعذار يجيء الغفران.

كانت زوجته امرأة لعوب، ولذلك فانه لن يسمح لأخيه الأصغر، والأكثر منه تهوراً، أن يسقط في الفخ نفسه. اعترفت ليسا لنفسها انها لو كانت هي في مكانه، لربما حاولت هي انهاء هذه العلاقة بكل وسيلة ممكنة، مشروعة أو غير مشروعة. ومع ذلك فانها لم تستطع ايجاد تفسير لاعتقاده بأن بول سيجد سعادته مع دومينيك. كان ذلك بمثابة لغز لها.

الآن وبعد أن حكى لها راؤول كل شيء في وضوح وصراحة، فقد حان الوقت لكي تكون هي أيضاً أمينة معه. ولكن ذلك كان مستحيلاً في وجود فرانسواز، ولم يكن باستطاعتها اختراع مهمة أخرى لتبعد بها الطفلة عن الغرفة.

والذي حدث أن المشكلة وجدت لها حلا بظهور ماغي عند باب غرفة المكتب، قائلة:

«أنت هنا ياعزيزتي. أشعر الآن أن الالهام لن يأتيني إلا في الشرفة، هيا احضري أوراقك.»

التفتت ليسا الى فرانسواز وقالت:

«يمكنك الآن ياصغيرتي أن تكملي بنفسك تنسيق الزهور في الاناء ثم تقدميه الى بابا كهدية منك.»

التقطت أوراقها وتبعت ماغي عبر الردهة، ثم غرفة الاستقبال الصغيرة، ثم الى خارج الشرفة حيث رص عدد من الطاولات الصغيرة، وعدد من المقاعد المريحة تحت أشعة الشمس المشرقة.

كانت السيدة دي جو تجلس على أحد هذه المقاعد، منشغلة في بعض التطريز. اكتفت بمجرد الابتسام والتلويح، بدون أن تبذل محاولة لتبادل الحديث مع ماغي وليسا وهما تبدآن في العمل.

كانت ماغي بالفعل في حالة نشاط ذهني. وبعد نحو عشر دقائق من الاملاء المتدفق على ليسا، أدركت الأخيرة أنها في حاجة الى بعض الأوراق الأخرى. استأذنت على عجل، وتركت ماغي ترشف كوباً من المثلجات، وأسرعت عائدة الى غرفة المكتب حيث تحتفظ ببعض الأوراق في أحد الأدراج.

كان باب الغرفة مواربا، ولم تحدث صوتاً وهي تدفعه أمامها. ثم توقفت، وهي لاتجرؤ على الاتيان بأية حركة أو صوت.

كان راؤول دي جو يقف في مواجهة المرآة، وهو يحمل فرانسواز بين يديه ويحملق في وجهه ثم وجهها، وكأنما يريد أن يرسم في ذاكرته كل ملمح من ملامحها. ثم جذب وجه الطفلة وقربه من وجهه، ثم أخذ في تقبيل وجنتيها، وعينيها، ويربت على شعرها، والطفلة تحتضن عنقه

بيديها الرقيقتين.

تراجعت ليسا الى الخلف بدون أن يراها أحد، وقد اختنقت بالعبرات وامتلأت عيناها بالدموع.

عندما عادت الى الشرفة، أدركت أن العمل انتهى لهذا اليوم. فقد انضم شخص جديد الى المجموعة، والتف الجميع حول إحدى الموائد. كان الرجل القادم يضع نظارات طبية، وله شعر خفيف. تعرفت ليسا عليه من فورها:

«سيد برينتيس!»

«عزيزتي الآنسة فيرفاكس. يالها من سعادة! لم أكن أتوقع رؤيتك مرة أخرى بعد أول لقاء لنا عند عرض الباشانت. كما أنني لم أتوقع أيضاً أن تكوني زوجة المستقبل لأحد الأبناء من أفراد هذا البيت. لو كان ماسمعته صحيحاً.»

ارتفع أنين ليسا في داخلها، وألقت نظرة يائسة الى ماغي التي كانت منشغلة بالنظر الى كوب المثلجات في يدها. أما السيدة دي جو فكانت تبتسم في رقة. لحسن الحظ لم تجد أي من السيدتين مغزى لاشارته الى سابق تقابلهما. اغتصبت ابتسامة وقالت:

«أعتقد أن في ذلك شيئاً من المبالغة، وأن شيئاً من هذا لم يحدد بعد.»

«ولكنني واثق أن ذلك سيحدث. انني أعرف أبناء دي جو هؤلاء، جيداً صدقيني، فهم يحصلون على كل شيء يرغبون فيه، وهذا هو السبب في أن مؤسسة فونتين أصبحت تعلو على غيرها.»

شعرت ليسا بالراحة، لأن الحديث أصبح عند هذا الحد عاماً واشترك فيه الآخرون. استند ماكس برينتيس بظهره على المقعد في حرية وقال:

«ولكن أين نيكول. انها الشخص الذي يجب أن أراه. لقد سمعت أن

صحتها ليست على مايرام، وهذا يعني كارثة بالنسبة إلينا.»

ردت السيدة دي جو بصورة غير متوقعة:

«ان متاعب نيكول عاطفية وليست صحية. ولكنها تقضي وقتاً طويلاً في الاستديو، وتبدو أكثر سعادة في كل يوم عن اليوم السابق. أما بالنسبة إلى العمل فيسير بشكل مرضٍ، وذلك الأمر الخاص، الذي أعتقد أنك عملت به، أنجزته في سرعة قياسية.»

«تقصدين سرّنا؟ يبدو أن راؤول هو الوحيد الذي يعرف عنه كل شيء، ربما كان يعلم أن هناك زواجاً ملكياً في الطريق.»

دار الحديث بعد ذلك منفرداً بين ماكس برينتيس وبين ماغي حول بعض معارفهما في لندن. وهكذا لم يكن الحديث يثير اهتمام الآخرين. وعندما توقف هذا الحديث برهة، لاحظت ليسا أن ماغي نظرت الى السيدة دي جو نظرة ذات مغزى، وردت عليها الأخيرة بإيماءة من رأسها. وهنا حركت السيدة دي جو أحد المقاعد الصغيرة وجذبته أمامها وأشارت الى ليسا بالجلوس قالت:

«هكذا. تتفتح نيكول الصغيرة في أشعة الشمس مثل ورودك الجميلة في الحديقة الصغيرة. أما أنت، ياصغيرتي، فانك تزدادين نحولاً يوماً بعد يوم.»

«انني على مايرام، ياسيدتي.»

«انني أحبك ياليسا، ولذلك أريد منك أن تصدقيني القول، هل تحبين ابني؟»

احتارت ليسا في الاجابة، وهمت أن تقول أيها، ولكن ذلك كان مستحيلاً، وإلا كشفت عن نفسها تماماً. قالت أخيراً في هدوء:

«سيدتي، أعتقد أنه يجب أن تعلمي أنني و بول قررنا بأننا لن نكون سعداء معاً، ويجب إنهاء خطبتنا.»

قالت السيدة في شيء من الدهشة:

«بول؟ ومن الذي أشار الى بول؟ انني أتحدث عن راؤول. هل تحبينه؟»

«سيدتي...»

توقفت ليسا عن الكلام. لقد كشف سرها، وفي اجابة تفضي بأبلغ من الكلام. رفعت ليسا يدها لتسند عليها وجنتها.

«هذا ما كنت أعتقده. ولكنني أحذرك ياصغيرتي، ان حياتك معه لن تكون سهلة لقد مرّ بتجربة مفزعة ويأس مرير ولذلك فقد أقام جداراً حول أرق مشاعره. ولكن المرأة الصالحة تعرف كيف تخترق هذا الجدار، وأعتقد انك تلك المرأة.»

قالت ليسا وهي تشعر بتعاسة بالغة:

«ولكنني لا أظن أنه يعتقد ذلك أيضاً ياسيدتي.»

«انك لم تشاهديه يوم الحادث الذي وقع لك. دخل علينا وهو يحملك بين ذراعيه. لقد كان شاحباً مثلك تماماً ورفض أن يتحرك من جانبك وأنت غائبة عن الوعي. وظل ملازماً لفراشك. وأريدك أن تعلمي ياصغيرتي أن بول أبلغني بالحقيقة كاملة. لقد غضبت في البداية ولكنني لم ألق عليك باللوم. فالغضب يجعل المرء لايتصرف على النحو السليم. ومع ذلك فمازلت أرحب بك كابنة في هذه الأسرة. لقد حان الوقت لأن تكون هناك عروس انكليزية أخرى في سانت دينيس.»

«ولكن ماذا عن دومينيك؟»

«ماذا عنها حقيقة؟ كانت عازمة على أن تتزوج واحداً من ولديّ. لو أن راؤول تزوجها، فان تلك ستكون زيجة عمل على ما أظن. انها تصلح زوجة مناسبة، بدون شك، ولكن راؤول لن يعرف معها الفرح، والألم، والسعادة للحياة التي يتشارك فيها اثنان في كل لحظة

من لحظاتها، والتي أثق أنه سيعرفها معك.»

أنقذ ليسا من الاحساس بالخجل لهذه الكلمات قدوم ماكس برينتيس اليها وامساكه ليدها قائلاً:

«هيا، أرني تلك الحديقة الانكليزية التي أقمتها في وسط فرنسا، والتي سمعت عنها الكثير. قالت لي آن ماري انك صنعت بها الأعاجيب.»

كانت تلك فرصة للهروب. لقد هزها حديث السيدة دي جو من أعماقها. فهي تعلم أن تلك الآمال لن تتحقق، ولا تأمل أبداً في أن تتحقق مرة أخرى تلك النشوة التي أحست بها من قبل بين ذراعيه.

١٠ ـ جدار المرارة الساخر

أظهر ماكس برينتيس أنه على دراية واسعة بالحدائق وكيفية العناية بها. ولقد أثنى كثيراً على ما حققته ليسا في تلك الفترة الصغيرة نسبياً التي قضتها في القصر. قال:

«أود لو أن السيدة دي جو الجدة تراها. سيكون ذلك مبعث سعادة لها.»

نظرت اليه ليسا في دهشة وقالت:

«اذن، أنت تعرفها؟»

ضحك وقال:

«أجل. بالطبع فهي لم ترحل عن القصر الا منذ سنوات قليلة. وكانت معتادة أن تجلس في هذه الخميلة مثل الملكة وهي تستقبل رعاياها.»

ثم تنهد وابتسم من جديد وقال:

«كان قرارها بالرحيل عن البيت خسارة كبيرة. أقسم، أنها لابدّ وأقامت حديقة مماثلة في الأنتيب حيث هي الآن.»

كان حديثه عفوياً، ومريحاً. وأكد لليسا شعورها بالارتياح له منذ المرة الأولى التي قابلته فيها في لندن. سألته وهي تقطف له وردة نضرة لتضعها في عروة سترته:

«هل لك وقت طويل هنا في فرنسا ياسيد برينتيس؟»

«أرجوك، نادني بماكس. فانني لا أحتمل كل هذا التكليف. وأجيبك الآن بأنني هنا منذ أيام قليلة فقط. فهناك بعض الأعمال التي يجب الانتهاء منها في باريس. أما السبب الحقيقي في وجودي، فهو مشروع دمج شركة منسوجات فومون مع فونتين وهو المشروع الذي سيجري الانتهاء منه هنا هذا المساء. وقد بعث راؤول في طلبي لأكون أحد الموقعين على العقد. وفي أية حال، يجب أن أرحل من هنا بعد العشاء مباشرة، اذ يجب أن أعود الى لندن غداً.»

الاندماج أخيراً! توقفت أصابع ليسا فجأة وهي تضع الوردة في عروة سترته وقالت في صوت لم تتعرّف هي عليه:

«لم ادرك أنه سيتم هكذا سريعاً.»

«ان المفاوضات تجري منذ عدة شهور. وهو مشروع سيفيد خططنا في التوسع. كما أنني سمعت أنه سيكون هناك نوع آخر من الاندماج سيعلن في الوقت نفسه.»

لا يهم الآن ماقالته الكونتيسة. فيبدو أن راؤول قد عقد العزم على الخوض في ذلك الطريق المرير الذي اختاره لنفسه. أصبح الزواج من دومينيك جزءاً من صفقة شاملة اتفق عليها مع أسرة فومون. انتابتها رعشة خفيفة، ونظر اليها ماكس في قلق:

«هل تشعرين بالبرد، ياعزيزتي. كان يجب عليك احضار وشاحك.»

«كلا، شكراً لك. لقد أسعدتني برؤيتك كثيراً. سوف نرحل أنا و ماغي الى لندن الأسبوع المقبل، وربما لن تسنح لي الفرصة لرؤيتك مرة أخرى.»

«أوه، لا أصدق هذا. فأنت بدون شك لن تنسي وعدك بزيارة فونتين في لندن لمشاهدة منتجاتنا. ومازلت أذكر ذلك الثوب الذي قلنا انه يناسبك

تماماً.»

قالت ليسا وهي تتظاهر بالحماس، وان كانت في داخلها تقسم ألاتضع قدمها مرة أخرى على أي أرض تخص فونتين:

«ان ذلك كرم منك.»

قال ماكس في مرح:

«انني أتذكر الآن اسمه ليلة من ليالي الصيف.»

قالت ليسا وهي تنحني لتقتلع ساقاً من العشب الضار لتخفي مايعتمل به وجهها من مشاعر:

«أجل. لقد شاهدت بالفعل أحد نماذجه. وكان جميلاً كما توقعت.»

«ان راؤول يخفي شيئاً أروع هذه الأيام. فهو يعمل و نيكول في ذلك القماش الذي لم يسمح لأحد غيرهما في مشاهدته.»

كانت تعرف ذلك الذي يشير اليه ماكس برينتيس. انه تصميم يوم الزفاف الذي يسرعان في الانتهاء منه حتى يتسنى لدومينيك أن ترتديه يوم زواجها في كنيسة القرية، وبعد ذلك يكون الحفل الراقص في الميدان مع أبناء القرية، وراؤول يمسكها بين ذراعيه. نظرت ليسا الى ماكس واغتصبت ابتسامة، وقالت:

«انك على حق. لقد بدأ الجو يبرد قليلاً. هل نذهب للداخل؟»

عندما أخذت ليسا في إعداد نفسها للعشاء تلك الليلة، كان تفكيرها مضطرباً ويداها ترتعشان لاتقويان على عقص شعرها الى الخلف كما تريد، لذا تركت لشعرها العنان لينسدل على وجهها. كيف تستطيع البقاء هنا ومواجهة هذه الليلة بما تحمله من أحداث؟ لقد علمت أن من بين الذين سيحضرون الليلة الى جانب محامي العائلة، والدا دومينيك.

قالت السيدة دي جو في مرح:

«ستكون مناسبة هامة. لطالما تمنته فونتين منذ آن طويل.»

كانت ليسا قد تمكنت أثناء تناول الشاي بعد ظهر ذلك اليوم من الحديث مع بول، وشكرته على إبلاغ والدته بالحقيقة، وردّ عليها في غير ارتياح:

«كان من الحماقة الاستمرار في تلك الكذبة، خاصة وأن زواج راؤول أصبح مؤكداً. لقد دارت مناقشات حول تسوية بعض الأمور الى جانب موضوع الاندماج. كما أنه أرسل مجوهرات العائلة الى باريس لتنظيفها، وهكذا ترين أنه من المتوقع أن يتم الاعلان عن زواجه في أي وقت. وهناك شيء آخر، هناك نيكول.»

قالت ليسا لنفسها: الى الجحيم بالحب الجديد، وأهلاً بالحب القديم.

قال بول مفسراً:

«لقد تعارفنا منذ أن كنا أطفالاً. وتحاببنا، ولكنها كانت مجرد علاقة صبيّ وفتاة صغيرة، أو هكذا خيّل لي. وبعد ذلك قابلت دومينيك، التي جذبني اليها اختلافها عن نيكول.»

توقف قليلاً، وقال وهو يتنهد:

«كنت أعلم أنني أتسبب في إيلام نيكول، بل والعائلة، التي أرادت لنا أن نتزوج وأعلم أيضاً أن دومينيك تجعلني أحمق. وأعرف طبيعتها تماماً ولكنها كانت مثيرة، وذلك ما رغبت فيه وقتئذ. ولكنني لم أفكر مطلقاً في الزواج منها، ولكنها، للأسف، كانت تفكر في ذلك.»

قالت ليسا، تعاونه في إتمام القصة:

«حينئذ جئت أنا في الصورة.»

«آه، كلا، على الاطلاق. لقد أحببتك حقيقة، لقد أحببتك حقيقة، بطريقتي الخاصة.»

«ولكن طريقتك الخاصة تلك لاتتفق وطريقتي، أعتقد أنني كنت بمثابة مهرب من دومينيك.»

قال بول في شيء من الخجل:

«ربما كان ذلك صحيحاً بقدر ضئيل. لقد كنت أهتم بك حقيقة.»

قالت ليسا في رقة وهي تضع قبلة على خده:

«سوف تسعد كثيراً مع نيكول. وأنا لي حياتي في لندن. فهذه الأسابيع الأخيرة كانت تجربة مفيدة لي.»

«ربما أكون قد تمكنت من الهرب من دومينيك كزوجة لي، ولكنها مازالت ستثقل كاهلي كزوجة لأخي.»

شعرت ليسا بوخز وقالت في صوت خفيض غير مسموع لها هي نفسها:

«لايمكن للانسان أن يفوز بكل مايشتهي.»

ثم افترقا.

وقفت ليسا أمام المرآة لتلقي نظرة أخيرة على نفسها قبل أن تهبط للعشاء، لمحت تلك الهالات السوداء تحت عينيها، وخطين حول فمها يؤكد ان حالة التوتر التي تمر بها. حاولت تجربة ابتسامة، ولكنها كانت ابتسامة مكبوتة ومصطنعة. وشعرت بالتعاسة وهي تفكر كيف ستبدو متعبة ومكدورة في مواجهة دومينيك التي ستكون متألقة بالانتصار.

كانت غرفة الاستقبال مكتظة عندما دخلتها. أسرع اليها ماكس بريتيس وقدمها لآل فومون. كان راؤول يرتدي حلة أنيقة للمساء، ويقف الى جوار المدفأة يتحدث الى دومينيك وهي في قمة أناقتها.

انضمت ليسا الى آن ماري ونيكول التي بدت سعيدة في

هدوء. قالت آن ماري:

«أعتقد أن الاعلان الرسمي للاندماج سيتم أثناء العشاء. وبالطبع ستكون هناك الكلمات الرسمية التي أمقتها. ولكن، على الأقل، لن تكون هناك قبلة كتلك التي أعلن بها بول عن خطبتكما. في يوم ما، يجب أن تبلغيني بكل شيء. انني للآن لا أستطيع أن أفهم تلك اللعبة التي كنتما تلعبانها. في هذه المرة، على الأقل، نحن نعلم شيئاً عما سيحدث. منسوجات فومون ستصبح أخيراً ملكاً لفونتين.»

ثم قالت بصوت خفيض:

«ولكنني سعيدة لأنك لست مخطوبة حقيقة لبول، ياعزيزتي، فانكما لا يلائم أحدكما الآخر على الأطلاق.»

احمرّ وجه ليسا خجلاً وقالت:

«أعتقد أنك على حق.»

حلقت فيها آن ماري في فضول. وقالت وهي تتنهد:

«ولكنني آسفة في أية حال. كنت أود أن تكوني زوجة أخي، ومع ذلك أحب أيضاً أن تكون نيكول زوجة أخي.»

علت وجه نيكول حمرة الخجل، وتمتمت بكلمات اعتراض هادئة. في تلك اللحظة شعرت ليسا بيد تمسكها من ذراعها. رفعت عينيها لترى راؤول يقف بجوارها. قال في هدوء:

«أود أن أتحدث معك على انفراد، من فضلك، في الشرفة.»

«ان الحديث على انفراد أمر صعب في مناسبات عامة كهذه. كما أن غيابك سيكون ملحوظاً. وفي أية حال، أعتقد أننا تحدثنا بما يكفي في الماضي.»

«على العكس. فان هناك عدداً من النقاط مازالت في حاجة الى ايضاح قبل أن أسمح لك بأن تستقلي الطائرة مع السيدة ديزموند في

الأسبوع المقبل.»

«لست مطالبة بالحصول على تصريح منك لمغادرة هذا المنزل ياسيدي أرجو أن تتذكر ذلك جيداً. انني لست واحدة من عبيد اقطاعك. ان الآنسة دومينيك تنظر الينا، ولا شك أنها تشعر باهمالك لها في هذه الليلة بالذات.»

تحول عنها فجأة وسار مبتعداً. تهاوت على أحد المقاعد القريبة وهي لاتستطيع السيطرة على مشاعرها المضطربة. هناك أمر واحد واضح تماماً، انها لن تستطيع احتمال حفل العشاء، بأي حال من الأحوال، حتى لو اعتبرها الآخرون تفتقر الى التصرف السليم.

توجهت الى الكونتيسة واعتذرت لها بنوبة مفاجئة من الصداع التصفي. عرضت عليها الكونتيسة، وهي تبدي قلقها البالغ عليها، أن تأخذ حبوباً مسكنة. أو أن تبعث في طلب الطبيب ولكنها قالت:

«شكراً. ياسيدتي، كل ما احتاجه هو قليل من الراحة.»

أخذت طريقها نحو الباب، وهناك كان يقف ماكس برينتيس الذي وصل الى سمعه ما كانت تتحدث به مع الكونتيسة، وبدا عليه القلق وخيبة الأمل.

«هل ستتركينا هكذا سريعاً؟ كنت آمل أن أحضر الى باريس في الأسبوع المقبل. ومع ذلك، أرجو ألا تنسي موعدك معي في لندن، اذا لم أتمكن من رؤيتك قبل رحيلي الى لندن الليلة. فانني أحب أن تقابلي زوجتي هيلين، وأطفالي أيضاً.»

نظرت اليه ليسا، وهبط عليها إلهام مفاجيء. لقد قال لها في الحديقة أنه سيرحل الى لندن على الفور، والآن هو يقول انه سيرحل الليلة سألته:

«هل ستسافر بعد العشاء ياماكس؟»

«أجل. لقد حزمت أمتعتي بالفعل.»

هذه هي فرصتها. نظرت اليه نظرة جمعت فيها كل التوسل وقالت:

«عندما تسافر الليلة الى لندن، هل تأخذني معك؟ انني في أشد الحاجة الى ذلك، واصطحابك لي في السيارة الى لندن سيحل جميع مشاكلي.»

وقالت لنفسها: أو على الأقل بعضاً منها.

حلق فيها ماكس وقال:

«اصطحابك؟ ولكنك سترحلين مع السيدة ديزموند بعد عدة أيام.»

«ولكنني أفضل أن أرحل الليلة، بعد العشاء، لو أمكن ترتيب ذلك. ان معي نقوداً، ومعي جواز السفر، كما أنه ليس معي الكثير من المتاع. أرجوك ياماكس، ساعدني.

لندن، حيث تنتظرها جيني وخطيبها روجر، والاعداد لزواجها، وحيث تسير الحياة في يسر مثل نسمة الصيف الرقيقة وبدون تحد. لندن، حيث يمكنها أن تنسى رائحة الورود في الحديقة الصغيرة والأحلام المستحيلة التي راودتها هناك، برجل أقام حول قلبه جداراً من المرارة الساخرة.

نظر اليها ماكس برينتيس في صمت للحظة وقال:

«وعندما تصلين الى لندن، الى أين تذهبين بعد ذلك؟»

«سوف أتوجه الى ديفون لزيارة والدي لبضعة أيام، وأنعم قليلاً بالاسترخاء. فقد أرهقت نفسي تماماً في الفترة الماضية.»

«انها فكرة تبدو طيبة. فان هواء البحر النقي والطعام الجيد سيفيدانك كثيراً، ويعيد الحمرة الى خديك. وبالطبع أشك في أن ذلك هو العلاج لما أنت فيه.»

قالت ليسا في اصرار:

«أرجوك ياماكس أن تأخذني معك، هل ستفعل؟»

«مادمت واثقة هكذا ياعزيزتي من أن ذلك هو ما ترغبين، وما تحتاجين، فسوف آخذك معي.»

قالت وهي تحاول أن تبتسم:

«انني واثقة من ذلك. فليباركك الله!»

عادت الى غرفتها، وحزمت حقيبة واحدة فقط وضعت فيها الأشياء الضرورية. كانت سعيدة لأن هذه المهمة شغلتها عن التفكير فيا يجري في ذلك الوقت في غرفة الطعام. ولكن التعاسة كانت تعتصرها عندما صادفتها تلك اللفافة التي تضم رداء ليلة من ليالي الصيف. أخرجتها في عصبية ووضعتها على السرير، وقررت ألا تأخذها معها.

كتبت مذكرة قصيرة لماغي تشرح فيها كيف أنها لاتستطيع البقاء في القصر بعد إعلان خطبة راؤول ودومينيك رسمياً، وتركت المذكرة فوق طاولة الزينة في غرفة أمها الروحية. لقد بدا لها الأمر وكأنه نوع من الفرار.

ثم جمعت حاجياتها الصغيرة في حقيبة يدها وخرجت زاحفة من الغرفة.

ولكنها تذكرت شيئاً هاماً. عبرت غرفة النوم، وجذبت ستائر النافذة. وألقت نظرة أخيرة على الحديقة الصغيرة.

ماذا يحدث عندما تذبل الورود على مكتب راؤول وتتساقط أوراقها؟ هل سيسمح لفرانسواز بوضع ورود أخرى بدلاً منها، أم أنه سيعتبر الأمر كله وكأنه لم يحدث على الاطلاق، ويترك الحديقة مهملة لتعود الى سيرتها الأولى، أو أن تتحول الى حمام للسباحة كما ترغب دومينيك.

وقفت في الممر الذي يعلو غرفة الصالون تنتظر. كانت تعلم أن العشاء قد انتهى الآن. بعد خمس دقائق خرج ماكس برينتيس

وصعد الدرج متوجهاً اليها:

«أرى أنك على استعداد. حسناً، أمهليني عشر دقائق فقط أجمع فيها حاجياتي وأحضر السيارة عند الباب الخلفي. سوف أقرع لك النفير. اتفقنا؟»

جلست تنتظر وهي تنظر في ساعتها. لقد كانت تلك أطول عشر دقائق في حياتها. نظرت حولها ترقب كل شيء. ان هذا المكان كان أشبه بالتيه في بداية أيامها هنا، والآن أصبح كل شيء مألوفاً. تذكرت الجياد والألفة التي أصبحت طبيعة العلاقة بينهما.

أحست بشهقة تختنق في صدرها، وهي تسمع صوت النفير. من الواضح أنه جاء أسرع مما كان متوقعاً.

هبطت الدرج على أطراف أصابعها حتى لاتحدث صوتاً. كانت هناك سيارة تقف عند طرف السلم خارج القصر. لاحظت أن باب مؤخرتها مفتوح لتضع فيه حقيبتها. كذلك كان الباب المجاور للسائق مفتوحاً. دخلت السيارة، وأغلقت الباب وراءها، وقبل أن تلتفت الى ماكس لتشكره، جاءها صوت راؤول:

«مساء الخير.»

مرت لحظة شلّ فيها تفكيرها ولسانها. ثم قالت، برغم علمها بأن ذلك الذي تقوله يجعلها تبدو كالبلهاء:

«ماذا تفعل هنا؟»

«انك في حاجة الى سائق. ويسعدني أن أقدم لك هذه الخدمة. فقد قرر ماكس أن الأنسب له تأجيل سفره. وهكذا، فانني هنا في خدمتك.»

«دعني أخرج من هذه السيارة!»

«أبداً. لن يحدث ذلك، قبل أن نصل معاً الى وجهتنا. لاتحاولي فتح باب السيارة. انه يغلق بطريقة آلية، ولا يمكن فتحه إلاّ من الخارج.»

بالاضافة الى أنك كنت متلهفة للهرب في هذه السيارة. ألا تثقين في يادتي للسيارات؟»

تحرك بالسيارة في يسر. كان جسم ليسا يرتعش غضباً واحباطاً. قالت:

«وبماذا ستفسر خطيبتك هذا الهروب الصغير لك من الحفل. أم أنها توافق على اغماض عينيها على بعض أفعالك؟»

«ترى من هي تلك الخطيبة التي تشيرين اليها؟»

حملقت فيه ليسا وقالت:

«الليلة، الاندماج مع منسوجات فومون. انك تعلم ماذا أعني. لقد رفض بول الزواج منها، وهكذا ترك لك ذلك الأمر.»

«لقد تم توقيع عقد الاندماج مع فومون قبل العشاء مباشرة.»

«كنت أعتقد أن جزءاً من الصفقة أن...»

«كنت تعتقدين أن دومينيك جزء من الصفقة. انني أعترف أنني كنت السبب في اعتقادك هذا. فذلك ما كنت أود أن أتحدث اليك بشأنه الليلة، ضمن أشياء أخرى، عندما دخلت الى غرفة الاستقبال وفي عينيك تلك النظرة التائهة التي أنستني كل شيء سوى الرغبة في أن أضمك بين ذراعي.»

حملقت فيه ليسا وقالت:

«اذن، فأنت حقيقة لم تخطب دومينيك؟»

«حاشا لله! كذلك لن يخطبها بول أيضاً. فذلك لم يكن أبداً جزءاً من خططي.»

«ولكن بول قال لي...»

«أوه. أعلم ما قاله لك. ذلك الكلام الفارغ عن الزواج الاقطاعي والعصور المظلمة التي يبدو أنك تعتقدين أنني أنتمي اليها. يالك من

حمقاء! إنّ أمي، والعائلة جميعاً، يريدون من بول أن يتزوج نيكول. ولكنه سار في لهوه هنا مع دومينيك وفي لندن. فماذا يمكن للمرء أن يفعل؟ لقد وجهت اليه إنذاراً. تزوج دومينيك وإلا، على أمل أن يعود الى رشده ويسترجع نيكول. تلك المسكينة التي لم تتوقف أبداً عن حبه»

«وبدلا من ذلك تحول اليّ.»

«كنت أستبعد ذلك بعد ما قلته لي في الشرفة تلك الليلة من أنه لاتوجد خطبة. فما الذي جعلك تغيرين رأيك؟»

«كنت ذاهبة الى غرفة المكتب وسمعتك تتحدث في التليفون. لقد أعتقدت أنك تعني بذلك الكلام أنك تخلصت مني بدون تكاليف.»

«هكذا الأمر اذن. كنت أعرف أن هناك شيئاً غير مفهوم. أقول لك الآن، انني قلت لأن ماري انني وضعت حداً لكل مايشعر به بول تجاه دومينيك باصدار أوامري اليه أن يتزوجها. وأن ذلك الأمر لايمثل أية خطورة على عملية الاندماج. فان آل فومون أناس عمليون فيما يتعلق بأمور العمل. ثم ان دومينيك لها العديد من المعجبين. وليكن الله في عون من تختاره.»

أوقف راؤول السيارة على جانب الطريق، وأطفأ الأنوار، واقترب منها:

«والآن، كيف ستنقذين كرامتي الجريحة؟ لقد كنت على وشك إعلان خطبتنا على العشاء، بعد أن طلبت يدك في رومانسية بالغة ونحن في حديقة جدتي. ثم هاأنذا أجدني أمام خطيبة تهرب مني مع أحد العاملين معي، والذي له من حسن الادراك انه أبلغني بما تنوين القيام به.»

«ولكنني أعتقدت أنك تكرهني لأنني خدعتك فيما يتعلق ببول.»

«قلت لك من قبل، ياجميلتي، أنك لم تخدعيني. كما أن خطبتك

المزعومة ليبول لم تكن بدون فائدة. وأقول لك . ان المرأة يمكنها أن تكذب بالكلمات، ولكن عينيها وجسمها يقولان الحقيقة. في كل مرة كنت أضمك فيها، كنت أعرف الحقيقة. كنت أعرف أنك ترغبينني مثلما أرغبك. أليس كذلك، ياحبيبتي ليسا؟»

مال عليها وعانقها برقة، ثم بقوة واصرار. وهي تتعلق به، عطشى للانتماء اليه تماماً. في النهاية، جذب راؤول نفسه على كره منه وقال:

«لم يحن الوقت بعد، لم يحن بعد.»

ثم قال مبتسماً:

«مازلت أتمسك بحق الرجل، كما تعلمين.»

«انك تعرف الكثير عن النساء.»

كانت تشعر في ذلك الوقت بشيء من الغيرة من كل أولئك النساء اللواتي اكتسب منهن تلك الخبرة التي لاشك فيها. قال وهو يرفع رأسها اليه حتى يرى وجهها تماماً:

«أجل، ياليسا، كانت هناك نساء في حياتي. ولكن لن يكون هناك سواك بعد الآن. وأقسم على ذلك.»

رفع يديها الى شفتيه وقبلها. كانت السكينة تملأ جو السيارة. وشعرت ليسا بالدموع تملأ عينيها. قالت وهو يعود الى ضمها من جديد:

«والآن، وبعد أن حصلت على موافقتك على زواجنا، اليك هدية الزواج.»

أحضر لفافة كبيرة من المقعد الخلفي للسيارة. حملقت فيها ليسا للحظة ثم بدأت في فك الشريط الذي يحيط بها. كان بداخلها رداء يوم الزفاف الرائع، يتلألأ تحت أضواء السيارة التي أنارها راؤول.

«هل أعجبك؟ كنت أعرف أنك تفضلين تصميماً مرصعا بالورود مثل

جدتي. وهل هناك أفضل من الورود التي بعثت فيها الحياة من جديد في حديقتها التي أصبحت حديقتك الآن ياحبيبتي، حيث ستجلسين وتنتظرين أطفالنا لتلعبي معهم عندما يكبرون.»

«وفرانسواز أيضاً؟»

«وفرانسواز، صغيرتي فرانسواز، ستكون هي أكبر أولادنا. ولها مكانة خاصة في حياتنا. شكرا لك ياحبيبتي. لقد كنت أعقل مني، يالفيكتوار المسكينة. كم كانت تكرهني حتى سممت حياتي بتلك الكذبة.»

أخذت ليسا يده ووضعتها على وجنتها وقالت:

«لن نتحدث عن الماضي بعد اليوم. لقد ذهب الآن الى الأبد.»

ثم قالت وهي تعيد وضع الرداء بعناية داخل علبته:

«كنت أعتقد أن هذا أعد من أجل دومينيك.»

«انك في بعض الأحيان ياجميلتي، غاية في التعقل، وفي أحيان أخرى، حمقاء للغاية. انك لا تتخيلين الجهد، والسرعة التي تم بها اعداد هذا الرداء ليكون جاهزاً في الوقت المناسب. والآن، ماذا عن الرداء الآخر الذي قدمته لك؟ ليلة من ليالي منتصف الصيف الذي يجمع الآخرون على أنه صمم خصيصاً ليليق بك؟»

«لقد تركته في غرفتي. وأقسمت حينئذ ألا أقبله أبداً.»

«حسناً. يمكن اذن انقاذه. ويمكنك أن ترتديه ظهر يوم زفافنا قبل أن نتوجه بعد ذلك الى الاحتفال في القرية.»

قالت له في شيء من الاثارة:

«هل أنت واثق تماماً انني أرغب في الزواج بك؟»

«أنا واثق أنني أنا أرغب في الزواج بك، وأكون مستعداً تماماً لما يترتب عليه من نتائج. والآن لنتوجه الى أنتيب لأقدمك الى جدتي. انها تتوق

الى رؤية الفتاة التي بعثت الحياة من جديد في حديقتها، وأحالتها الى مكان للأحلام كما كانت من قبل.»

قالت ليسا وهي تضحك في سعادة غامرة:

«تصور أنني كنت لماغي أنني سوف أرحل عن القصر بدون أن التفت لألقي نظرة الى الوراء.»

«لن تنظري الى الوراء بعد الآن يا ليسا. منذ الآن فصاعداً لن ننظر إلاّ للأمام، الى السعادة التي ستضمنا تحت جناحيها الى الابد.»